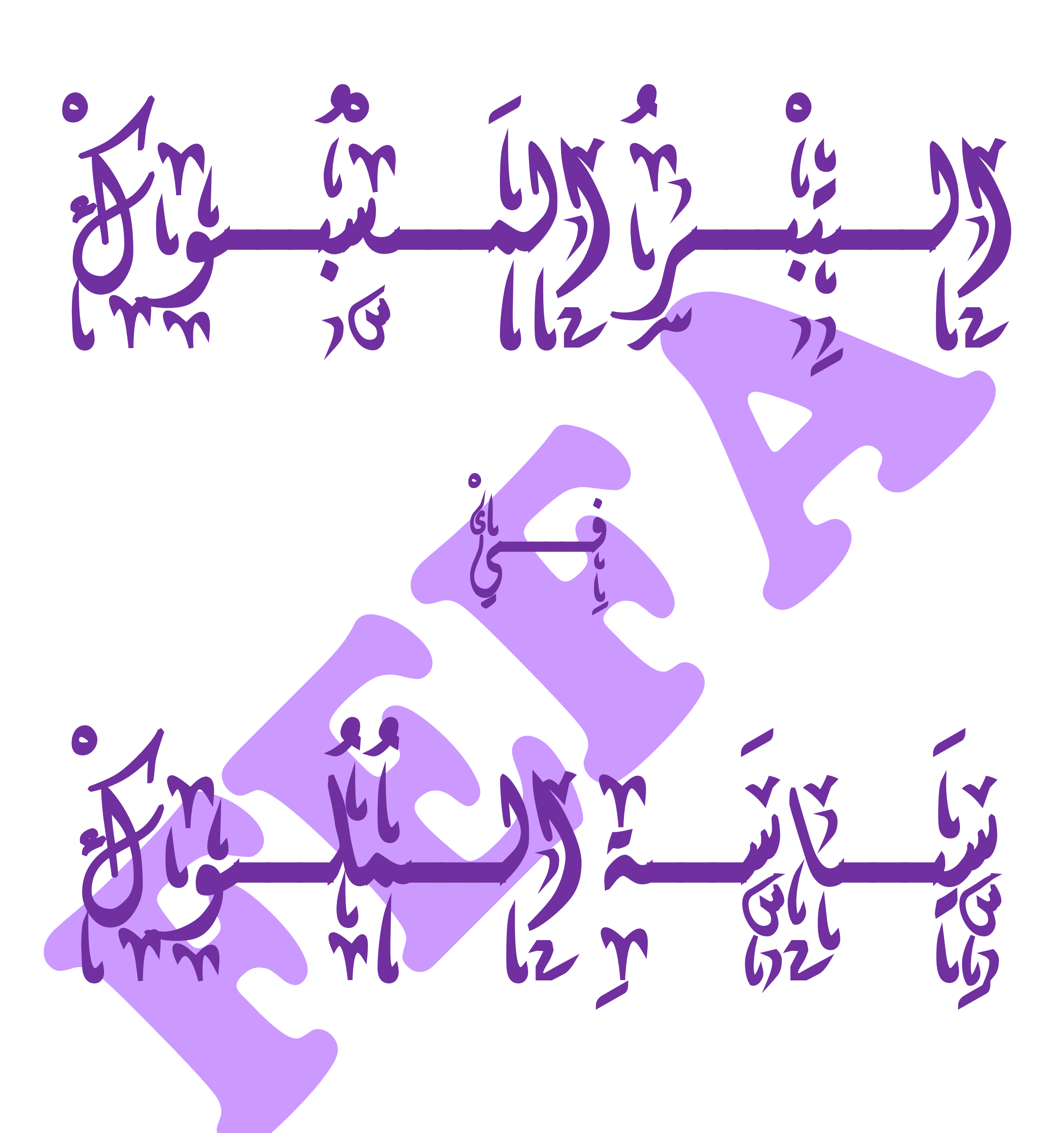
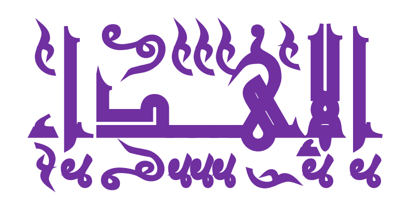


فـــاتـــح .ز. آل فـــنـــي



إلى الروح الطيبة

17 – 04 – 2017

مع فائق الإحترام والتقدير إلى

سماحة الشيخ وجلالة الأستاذ

أحمد شمس الدين

الذي ضبط وصحح أول عمل لهذا الكتاب في عصرنا



كتاب كبير الشأن خطير الموضوع عظيم الطرح، من الزمن الغابر الجميل رشح إلينا من مكتبتنا العريقة، يندرج ضمن قسم التراث السياسي لأمتنا العظيمة المجيدة، يفوح بعبق المعارف بأسلوب جملته بساطة الكلمات وخفة المصطلحات وعميق الدرر المكنونات بين طيات الدفتر الذي تمسكه كلتا يداك وتبصره عيناك، يزهوا على العالم بجليل النصائح ويفخر بقدر ليس باليسير من الحكم البينات المحكمات

صيغ بأسلوب بسيط طرق على الورق طرقا جميل ووزن الفضل فيه بالميزان الخفيف والثقيل، سعي صاحبه لاجتناب كل خطأ فادح فنصح بفصيح الألفاظ وجلي العبارات فنجلت به الظلمات واستقامة به الأنفس السقيمات ففهمنا صاحبه جلالة النصيحة متجنبا الهتك والفضيحة أمام البعيد والقريب والعدو والحبيب، ساترا الواجب ستره مقرعا أيما تقريع بغيض العادات وشنيع التصرفات، حامدا كل المكارم داعيا الجمع للفضائل

تجاوز كاتبه الكريم المحمود بسيرته المستقيم في سريرته اختلاف الأهواء وتنوع الأمزجة والآراء، فصال وجال في العوالم البائدة والأمم الغابرة في حدائق الحكمة النادرة قاطفا من آثارها المندثرة ما لقح به العقول من عظيم فضل تبر الفحول

فجاد بذا الخير كله الذي تقرأ، وأفلح التلميذ النجيب في إجلاء عباراته وبيان كلماته، فصاغه أيما صياغة وخطه بلغة الكتاب المنزل من فوق السحاب المرسل، فأبدت عربيته عظيم قدره، بعد أن استعجم في فهمه الجاهل بالفارسية وهي لسان الأستاذ وحروفه الأصلية

كيف لا؟

ومن طلب النصح والإرشاد سلطان ذاك الزمان الأمير المعظم والقائد المفدى محمد بن ملك شاه السلجوقي فكتب له الذي بين يديك يريد به الرشد والسداد والتوفيق في قيادة البلاد والانقياد لرب العباد والتزود قبل اللقاء في يوم الميعاد

فرأينا أن نحمله إليك حملا يسيرا، وأن نحببك لتطالعه كثيرا وقد سبقنا قبل القيام بهذا العمل بتأويل أحد الأعمال الأُول الذي يعرف بكتاب نصيحة الملوك للماوردي فحولنا العنوان لحُوَل المَلِك، فباشرنا خطتنا في هذا العمل على نفس المضمار وبنفس الشعار فرقعنا ونحسب أننا أجدنا، ونصيحتنا الأخذ بالزادين ومطالعة الأصلين، لتبين الخلاف ورجائنا اجتناب الإسراف في كثير الكلام والنصائح ذات نفس المعان، مع تباين طفيف في العرض والبيان

عنونة لك هذا الكتاب بعنوان: التبر المسبوك في سياسة الملوك مخالفا العنوان الأصلي الذي هو: التبر المسبوك في نصيحة الملوك

عنواننا أوحى به إلينا كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك لصاحبه البربري أبو حمو موسي الزياني الثاني سلطان الدولة الزيانية التي نشأت فيما عرف بالمغرب الأوسط في بلاد المغرب العربي الكبير

خطة الكتاب:

عدا عن تغير عنوان الكتاب من العنوان الأصلي: التبر المسبوك في نصيحة الملوك، إلى عنوان مبتدع مغمور وهو: التبر المسبوك في سياسة الملوك

غيرت من صورة الكتاب، وأعدت تفصيله وإعادة تسمية الكثير من أبوابه وفصوله عسى أن يلقي هذا الأمر قبولا، وجعلت البناء كالآتي خططت ثلاثة أبواب وهي:

- *الباب الأول سميته: صورة الاعتقاد، واشتمل على جل الكلام والخطاب في نظرية الكاتب عن شجرة الإيمان*
- *الباب الثاني سميته: أَخلاقُ الإِمَارَةِ، واشتمل على فهم لسلطة وبيان علة وجودها*
- *الباب الثالث سميته: أركان الإمارة، واشتمل على جل عدة وعتاد الأمير ومقومات السلطة*
- *الباب الرابع سميته: في شرف العقل والعقلاء وخير النساء، واشتمل على كلام في العقل والنساء*

وضمنت الأبواب السالفات فصول كاشفة مزيلة للغمة، وزدت على هذا العمل بعناوين لكثير من الفصول من وضعي، تيسيرا للقراءة والمراجعة

مهدت للعمل بالديباجة التي بين يديك، ثم عرجت في توطئة هي من أصله المنشور في سنة 1988 من طرف دار الكتب العلمية ببيروت لبنان، فجاءت الخطة ممهدة كالآتي:

- *الكتاب ونسبته*
- *مقدمة التلميذ المترجم*
- *كلمة الإمام أبو حامد الغزالي لسلطان محمد بن ملك شاه*
- *لم أغير كلمة عن موضعها ولم أحذف حرفا، رغم الحاجة*

لقد قمنا بإعادة النظر في العمل، فما ارتضيناه كتبناه دون أن نمسسه، وما أبغضناه حذفناه

جرحنا وعدلنا في الكثير من الفقرات بين الزيادة والحذف، ولم نشر لموضع الزيادة ولا بينا ماذا حذفنا [رغم أنها من حين لحين ستكون واضحة]

فما أحببنا شرحه، أو توافق مع السياق للبيان جعلناه بين قوسين

وما أضفناه هنا وهناك جعلناه بين معترضتين سواء كان نصا كاملا معدلا أو إضافة من وضعنا، وليس جل ما أضفناه أشرنا له

حذفنا بعض القصص والحكم التي تكرر نفس النصيحة بوجه مختلف، دون العبث بالسياق والمضمون، تحببيا للقارئ وحفاظا على وقته الثمين

ومن أشكل عليه العمل عاد وقارنه بالأصل

عملنا هذا سبق أن قلنا إنه متوافق مع عمل أخر من جهدنا وهو كتاب نصيحة الملوك للماوردي، هذين المخطوطين وأنا أقصد العمل الأصل والعمل الذي بين يديك تحفة وجب اقتناءها والتبصر فيها من حين لآخر. فقد آن أوان النهضة السياسية والحضارية المجيدة

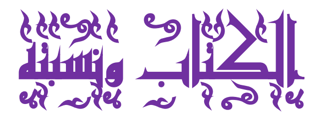
مع كل التمنيات بأن يكونا قد استحصلا على إعجابك ولم أثر بهما سخطك

والسلام

08- 07- 2019

فــاتــح .زقلاش. آل فــنـــي

التوقرتي الأندلسي



جاء في الجزء الأول من كتاب كشف الظنون صحيفة رقم 243 ما نصه بالحرف الواحد:

التبر المسبوك في نصائح الملوك ...

فارسي للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة 505 ألفه لسلطان محمد بن ملك شاه السلجوقي، ثم عربه بعضهم، ونقله محمد بن علي المعروف بعاشق جلبي إلى التركية، ونقله أيضا علائي بن محمد الشريف الشيرازي لسنان بك من أتباع بايزيد بن السلطان سليمان شاه وسماه نتيجة السلوك

وهو على مقدمة أورد فيها نصائح الغزالي لمحمد بن ملك شاه، ومقالتين وسبعة أبواب، وفي هذا المترجم إلحاقات كثيرة

ونقله أيضا المولي محمد بن عبد العزيز المعروف بجودي المتوفي سنة 1020

مقدمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على أنعامه وأفضاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله

وبعد

فإنه سألني بعض المتقدمين من الكبراء أن أنقل هذا الكتاب وهو كتاب نصيحة الملوك من اللغة الفارسية إلى الألفاظ العربية، فامتثلت ذلك ونقلته على ترتيبه وصورته، ولم أغير شيئا من وضع الكتاب وصفته

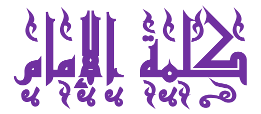
واجتهدت في تسهيل عباراته وإيضاح إشاراته، قصدا لمستعمل الكلام ليكون قريبا للأفهام، بقدر ما بلغته بلاغته وأفصحت عنه فصاحته

وترجمت عما استشهد به مؤلف الكتاب من الأخبار والأشعار الفارسية، بأشعار من العربية إشارة إلى معانيها، وتلويحا إلى مقاصدها ومغازيها

وأنا أعتذر عن تقصيري بفضلهم غاية الاعتذار، إذ لم أكن من فرسان هذا المضمار، فليتجاوز عن تقصيري الكرماء وليصفح لي عن نقصه بفضلهم العلماء

ومن وجد في كلامه خللا فستره أو أصاب زللا فغيره، حاز بذلك جزيل الأجر وجميل الذكر

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب



قال الشيخ الإمام العالم العارف زين الدين حجة الإسلام شرف الأئمة أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي رحمه الله، وهو يخاطب السلطان محمد بن ملك شاه رحمه الله:

اعلم يا سلطان العالم، ملك الشرق والغرب، أن لله عليك نعما ظاهرة، وآلاء متكاثرة، يجب عليك شكرها، ويتعين عليك إذاعتها ونشرها، ومن لم يشكر نعم الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه، فقد عرض تلك النعمة لزوال وخجل من تقصيره يوم القيامة، فكل نعمة تفني بالموت فليس لها عند العاقل قدر ولا عند اللبيب خطر، لأن العمر مهما تطاولت مدده، لا ينفع إذا انقضي عدده، فإن نوحا عليه السلام عاش ألف سنة ونيفا ومن موته إلى الآن خمسة ألاف سنة كأنه لم يكن

فالقدر المنعمة التي تبقي على الدوام، وتدوم مدي الليالي والأيام هي نعمة الإيمان الذي هو بذر السعادة المؤبدة، والنعمة المخلدة

والله جلت قدرته وعلت كلمته وآلاؤه قد خولك هذه النعمة، وزرع بذر الإيمان في صفاء صدرك، وأودعه في قلبك وسرك، ومكنك من تربية ذلك البذر، وأمرك أن تسقيه ماء الطاعة حتى تصير شجرة أصلها في قعر الأرض السفلى، وفرعها في السموات العلى، كما قال عز من قائل: (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء)

وإذا لم يثبت أصل الشجرة بالإيمان ولم يكمل فرعها، يخاف عليها من هبوب رياح الموت، وعواصف الفوت، فتنقلع عند النفس الأخير، فيبقي العبد والعياذ بالله بغير إيمان، ويلقي ربه بغير إحسان

واعلم أيها الملك أن لهذه الشجرة عشرة أصول وعشرة فروع، فأصلها الاعتقاد بالجنان وفرعها العمل بالأركان، ولما صادف القبول من المجلس العالي شرح هذه العشرة أصول والعشرة فروع، ليشتغل السلطان بتربية هذه الشجرة، وإنما يصح له ذلك إذا أفرد يوما من أيام الأسبوع لعبادة ربه والاشتغال فيه بعمل الآخرة وهو يوم الجمعة، فإنه عيد المؤمنين وفيه ساعة شريفة كل من سأل الله تعالي حاجة بنية حاضرة، وسريرة طاهرة، فإنه جل ذكره يقضي حاجة ولا يخيب دعوته

فماذا عليك إذا أفردت من سبعة أيام يوما واحدا لخدمة ربك فإنه في المثل:

لو كان لك عبد وأمرته أن يشتغل في كل أسبوع يوما واحدا بخدمتك، ليتأهب له مع تقصيره في الأيام الستة، فخالفك ذلك العبد، كيف يكون حاله عندك مع أن العبد لست بخالقه وإنما هو عبد لك مجازا؟

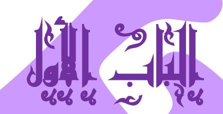
وأنت أيها الملك عبد مخلوق للخالق تعالي، وعبده على الحقيقة، فلم ترضي من نفسك ما لا ترضاه من عبدك؟

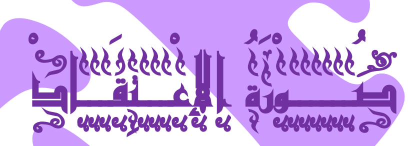
فأنو الصيام من ليلة الجمعة، وإن أضفت إليه الخميس كان اولى، وقم يوم الجمعة صبحا، واغتسل والبس من الثياب ما له ثلاث صفات: أن يكون حلالا وأن لا يكون أبريسما (أحسن الحرير)، وأن يكون مما تجوز فيه الصلاة، في الصيف الدبيقي (بليدة دبيق كانت بمصر) والقصب والكتان التوزري (توزر بلد بتونس)، وفي الشتاء الخز والصوف الرومي، وكل ثوب على غير هذه الصفة فإن الله تعالي لا يرضاه

وصل الصبح في جماعة ولا تتكلم إلى أن تطلع الشمس، ولا تحول وجهك عن القبلة وخذ السبحة وقل: "لا إله إلا الله محمد رسول الله" ألف مرة، فإذا طلعت الشمس فمر قارئا يقرأ عليك هذا الكتاب، وكذلك فليقرأ عليك في كل جمعة ليحصل في محفوظتك، فإذا فرغ القارئ من قراءة الكتاب فصل أربع ركعات وسبح إلى وقت الضحى، فإن ثواب هذه الصلاة عظيم وخاصة يوم الجمعة

وبعد ذلك إذا كنت على تخت الإسلام (سرير الملك) أو كنت في خلوة فقل: "اللهم صلى على محمد وعلى آله" متواترا

ومهما قدرت أن تتصدق في هذا اليوم فتصدق، وأجعل هذا اليوم الواحد من أيام الأسبوع لله ليجعل الله باقي الأسبوع مكفرا عنك





الأصول العشرة ونظرية الإيمان

الأصل لأول

قاعدة الإعتقاد الذي هو أصل الإيمان

اعلم ايها السلطان

أنك مخلوق ولك خالق وهو خالق العالم الذي تبصر والعوالم التي لا تري وجميع ما في الكون، إنه إله واحد لا شريك له، فرد لا مثل له، كان في الأزل وليس لكونه زوال، ويكون في الأبد وليس لبقائه فناء، وجوده في الأبد والأزل واجب وما للعدم إليه سبيل، وهو موجود بذاته، وكل أحد محتاج إليه وليس له إلى أحد احتياج، وجوده به ووجود كل شيء به

الأصل الثاني

تنزيه الخالق

جلالتك

اعلم أن الباري، ليس له صورة ولا مثل ولا يكافئه أحد، وأن لا نزول ولا حلول في قالب كيف ذلك وهو لكل شيء رب وخالق

اعلم ان سبحانه منزه عن الكم والكيف ولماذا وكم، وأنه ليس كمثله شيء، وكل ما خطر في الوهم والخيال والفكر من تخيل وتمثيل وتكييف فإنه منزه عنه سبحانه، لأن ذلك من صفات المخلوقين وهو خالقها الفرد فلا يوصف بها

تعالي جده ليس في مكان ولا على مكان، فالمكان لا يحصره، وكل العالم وما فيه تحت عرشه، وعرشه تحت قدرته وتسخيره، والعرش ليس بحامل لذاته سبحانه بل العرش وحملته يحملهم لطفه وقدرته، منزه عن الحاجة للمكان قبل خلق العرش وبعد خلقه العرش

والإيمان بالاستواء واجب، والإقرار به حق، والسؤال عن الكيف فتنه - كما قال الإمام مالك -

سبحانه وتعالي علوا كبيرا فوق العرش وفوق كل شيء إلى تخوم الفضاء، ومع ذلك هو قريب من الوجود، وأقرب إلى البعيد والقريب من حبل الوريد

وهو على كل شيء قدير وشهيد، فعال لما يريد

لايزال في نعوت الجمال وصفات الجلال، منزه عن الزوال والانتقال، مستغنيا عن زيادة الاستكمال

وأنه متصف بالصفة التي كان عليها في الأزل، ولا سبيل إلى التغير والانقلاب، في الدنيا جل جلاله معلوم وفي الآخرة مرئي كما نعلمه في الدنيا بلا مثل ولا شبه سبحانه وتعالي

الأصل الثالث

القدرة

أعلم أن الخالق قادر على كل شيء، ملكه في نهاية الكمال، لا سبيل إلى العجز والنقصان فعال لما يريد، وأن السموات السبع والأرضين والكرسي والعرش في قبضة قدرته وتحت قهره، وهو مالك الملك لا ملك إلا ملكه، تعالي علوا كبيرا

الأصل الرابع

العلم

جلالتك

سبحانه وتعالي عالم بكل معلوم، وعلمه محيط بكل شيء، لأنه الأشياء بعلمه ظهرت وبإرادته خلقها وبقدرته كونها

وجميع ما في العالم بإرادته ومشيئته، وليس شيء من قليل أو كثير، صغير أو كبير، خير أو شر، نفع أو ضر، إلا بحكمه وتدبيره ومشيئته وتقديره

لو اجتمعت الإنس والجن والملائكة والشياطين أن يغيروا في العالم ذرة بغير إرادته وحوله لعجزوا عن ذلك ولم يقدروا

وما شاء الله كان وما لا يشاء لا يكون ومهما كان وسيكون هو بتدبيره ولا راد لمشيئته وأمره

الأصل الخامس والسادس

سميع بصير

اعلم أن ذو الجلال كما أنه عالم بجميع المعلومات فإنه سميع لكل مسموع، بصير لكل مبصر، لا يخفي عليه دبيب النملة في الليلة الظلماء ولو كانت تحت أطباق الأرض

سمعه ليس بأذن وبصره ليس بعين تعالي الله عن قول المجسدة والمعطلة والجهمية

علمه لا يصدر عن فكرة وفعله بغير آلة وعدة، يقول لشيء كن فيكون

الأصل السابع

الكلام

سموك

أمره تعالي نافذ واجب، وعده ووعيده حق وأمره كلامه

عالم مريد قدير سميع بصير متكلم، القرآن والتوراة والإنجيل والزبور والكتب المنزلة على الأنبياء عليهم السلام، جمعيها كلامه تعالي جده عما قاله المعتزلة

كلامه صفته، وكل صفاته أزلية سرمدية

الكلام عند الأدمي بالحرف والصوت، وكلام الله منزه عن مشابهة خلقه

الأصل الثامن

أفعاله تعالي

جميع ما في العالم مخلوق له تعالي، وليس معه شريك ولا صاحب ولا ولد، هو فرد صمد

وكل خلقه من تعب ومرض وفقر وعجز وجهل فعدل منه

حرم الظلم على ذاته، فالظالم هو من يتصرف في ملك غيره، وجعل الظلم بين عباده حراما

سبحانه مالك لكل ما كان وما سيكون بلا شبيه ولا شريك. وليس لأحد عليه اعتراض بلم وكيف، وما للمخلوقين غير التسليم والنظر إلى صنعه والرضا بقضائه

الأصل التاسع

ذكر الآخرة

سبحانه خلق العالم من نوعين:

جسد وروح، وجعل الجسد منزلا لروح لتأخذ زاد لآخرتها من هذا العالم، وجعل لكل روح مدة مقدرة تكون في الجسد، فآخر تلك المدة هو حضور الأجل (الموت)، وبه يقع الفراق بين الجسد والروح

وبوضع الميت في القبر تعود الروح إلى الجسد لجواب سؤال منكر ونكير الذي هو:

من ربك، من نبيك؟

فإن استعجم ولم يجب عذب

أما يوم القيامة، فهو يوم الحساب والمكافأة والمناقشة والمجازاة، يوم رد الروح ونشر الصحف وعرض الأعمال على الخلائق

توزن فيه الأعمال صم يؤمر بالجواز على الصراط، والصراط أدق من الشعرة واحد من الشفرة، فكل من كان الصلاح سبيله جازه بلا تعب ولا وصب، وإن خالف السيرة المحمودة وقع عن الصراط إلى درك جهنم

فالكل واقف ومسائل بالصراط، فالصادق يسأل عن صدقه، والمنافق يفضح ويكشف

من الناس من يدخل الجنة بغير حساب، وجماعة بالرفق والمسامحة، وجماعة يحاسبون بالصعوبة والمناقشة والمحقاقة العسيرة

فينتهي الأمر بسحب أهل النار التي لا يجدون منها خلاص، ويدخل أهل نحلة الإسلام الجنان، وكل من نالته شفاعة الأنبياء والعلماء والأكابر من الشهداء والأولياء عفي عنه، وكل من ليس له شفيع عوقب بمقدار إثمه وعذب بقدر جرمه، ثم يدخل الجنة ويوقي النار إن كان سلم معه إيمانه

الأصل العاشر

في ذكر رسول الله [صلى الله عليه وسلم]

إن من تقدير الله سبحانه وتعالي، جعل أفعال الإنسان وأحواله، واكتسابه وأعماله، منها ما هو سبب لسعادته، ومنها ما هو سبب لشقاوته، والإنسان ليس له معرفة ذلك من تلقاء نفسه، فخلق الله بحكم فضله ورحمته ملائكة، بعثهم لرجال حكم عليهم بالسعادة في الأزل هؤلاء الرجال هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

فأرسل الأنبياء لخلقه ليبينوا لهم سبيل النجاة ويبصروهم بدروب الهلاك، حتى لا يكون لناس على الله حجة

وكان نبينا محمد [صلي الله عليه وسلام] أخرهم وخاتمهم، وجعله بشيرا ونذيرا، فأوصل نبوته درجة الكمال، فلم يبق لزيادة مجال، وأمر الخلق من الإنس والجن بطاعته واتباعه، وجعله سيدا على الأولين والآخرين، وجعل أصحابه خير أصحاب الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين

فروع شجرة الإيمان

أعلم أيها السلطان

أن كل ما كان في القلب من معرفة واعتقاد فذلك أصل الإيمان، وما كان جاريا على أعضائه السبعة من الطاعة والعدل فذلك فرع الإيمان، فإذا كان الفرع ذاويا ذابلا دل على ضعف الأصل

وضعف الأصل إشارة على عدم ثباته هذا ما يقود لموت هذا الإيمان، وعمل البدن عنوان إيمان القلب دليل على حياته

والأعمال التي هي فروع الإيمان تقوم على تجنب المحارم وأداء الفرائض، وهما قسمان:

أحدهما بينك وبين المولى عز وجل، مثل الصوم والصلاة والحج والزكاة واجتناب شرب المسكر والعفة عن كل الحرام

والأخرى بينك وبين الخلق، وهي العدل في الرعية والكف عن الظلم

والأصل في ذلك أن تعمل فيما بينك وبين الخالق تعالى من طاعة أمره، والإزدجار بزجره، والعمل فيما بينك وبين الناس ما تؤثر أن يعمل معك

أيها السلطان

ما كان بينك وبين الخالق سبحانه فإن عفوه قريب، وأما ما يتعلق بمظالم الناس فلا عفو فيه فأمره للمظلومين، وخطره عظيم، ولا يسلم من هذا الأمر أحد من الملوك إلا ملك عمل بالعدل والقسط

فأطلب العدل والإنصاف في رعيتك، يطلب لك يوم القيامة

أصول العدل والإنصاف

الأصل الأول

قدر الولاية

أيها السلطان

عليك أن تعرف قدر الولاية وتعلم خطرها، فهي نعمة من نعم الله من قام بحقها نال من السعادة ما لا نهاية له ولا سعادة بعده، ومن قصر عن النهوض بحقها حصل وقع في شقاوة لا شقاوة بعدها إلا الكفر بالله

ودليل جلالة خطرها وعظم قدرها

روي عن النبي [صلى الله عليه وسلم] أنه قال: < عدل السلطان يوما واحدا أحب إلى الله من عبادة سبعين سنة >

وكفي بها خطرا أن السلطان العادل كان ممن يظلهم الله بظله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله

فإذا كان هذا الحال فلا نعمة أجل من أن يعطى العبد درجة السلطنة، ويجعل ساعة من عمره بجميع عمر غيره، ومن لم يعرف قدر هذه النعمة واشتغل بالظلم واتبع هواه كان في جملة أعداء الله

وجاء أيضا مما يظل على خطر الولاية ما روي عن ابن عباس أن رسول الله عليه الصلاة والسلام، أتى بعض الأيام فلزم حلقة باب الكعبة، وكان في البيت نفر من قريش فقال: < يا سادات قريش عاملوا رعاياكم وأتباعكم بثلاثة أشياء، إذا سألوكم الرحمة فارحموهم، وإذا حكموكم فاعدلوا فيهم، واعملوا بما تقولون، فمن لم يعمل بهذا فعليه لعنة الله وملائكته. لا يقبل الله منه فرضا ولا نقلا >

وقال أيضا [صلى الله عليه وسلم]: < أشد الناس عذابا يوم القيامة السلطان الظالم >

وقال النبي في حديث آخر: < ويل للأمراء، وويل للعرفاء، وويل للعوانية، فإنهم أقوام يعلقون في السماء بذوائبهم في القيامة، ويسحبون على وجوههم إلى النار، يودون لو لم يعملوا عملا قط >

وجاء في الخبر أن داود عليه السلام كان يخرج ليلا متنكرا بحيث لا يعرفه أحد وكان يسأل كل من يلقاه عن حال داود سرا، فجاءه جبريل في صورة رجل فقال له داود: ما تقول في داود؟ فقال: نعم العبد، إلا أنه يأكل من بيت المال ولا يأكل من كده وتعب يده

فعاد داود لمحرابه باكيا حزينا وقال:

إلهي علمني صنعة آكل بها من كدي وتعبي، فعلمه الله صنعة الزرد

وكان الفاروق عمر بن الخطاب يخرج كل ليلة يطوف مع العسس (حرس الليل) حتى يرى خللا يتداركه، وكان يقول: لو تركت عنزا جرباء على جانب ساقية لم تدهن لخشيت أن أسأل عنها يوم القيام

فأنظر أيها السلطان رحمك الله إلى عمر واحتياطه وعدله كيف يتفكر ويتخوف من أهوال يوم القيامة، وأنت جلسة لاهيا عن أحوال الرعية غافلا عن أهل ولايتك ساهيا عن يوم لقاء ربك

أيها السلطان

خطر الولاية عظيم، وخطبها جسيم والشرح في ذلك طويل، ولا يسلم الوالي إلا بمقاربة علماء الدين ليعلموه طرق العدل ويسهلوا عليه خطر هذا الأمر

الأصل الثاني

الشوق إلى أهل الخير

الاشتياق الدائم إلى رؤية العلماء والحرص على استماع نصحهم، والحذر من علماء السوء الذين يحرصون على الدنيا، فإنهم يثنون عليك ويغرونك ويطلبون رضاك طمعا فيما في يدك من خبث الحطام ووبيل الحرام، ليحصلوا منه شيئا بالمكر والحيل

والعالم هو الذي لا يطمع فيما عندك من المال، ومنصفك من في الوعظ والمقال

سأل عمر بن عبد العزيز محمد بن كعب القرظي فقال:

صف لي العدل! فقال: كل مسلم أكبر منك سنا فكن له ولدا، ومن كان أصغر منك فكن له أبا، ومن كان مثلك فكن له أخا، وعاقب كل مجرم على قدر جرمه، وإياك أن تضرب مسلما سوطا واحدا على حقد منك فإن ذلك يصيرك إلى النار

حضر بعض الزهاد بين يدي خليفة، فقال له: عظني! فقال: يا أمير المؤمنين إني سافرت الصين، وكان ملك الصين قد أصابه الصمم وذهب سمعه، فسمع يقول يوما وهو يبكي:

والله ما أبكي لزوال سمعي وإنما أبكي لمظلوم يقف ببابي يستغيث فلا أسمع استغاثته، ولكن الشكر لله إذ بصري سالم

وأمر مناديا ينادي:

ألا كل من كانت له ظلامة فليلبس ثوبا أحمر

فكان يركب الفيل فكل من رأي عليه ثوبا أحمر دعاه واستمع شكواه وأنصفه من خصمائه

فأنظر يا أمير المؤمنين إلى شفقة ذلك الكافر على عباد الله وأنت مؤمن من أهل بيت النبوة، فأنظر كيف تريد أن تكون شفقتك على رعيتك

كان سليمان بن عبد الملك خليفة فتفكر يوما وقال:

قد تنعمت في الدنيا طويلا فكيف يكون حالي في الآخرة؟

وأتى إلى أبي حازم، وكان عالم أهل زمانه وزاهد أوانه، وقال: أنفذ لي شيئا من قوتك الذي تفطر عليه. فأنفذ له قليلا من نخالة وقد شواها، فقال هذا فطوري. فلما رأي سليمان ذلك بكي وأثر في قلبه الخشوع تأثيرا كبيرا، فصام ثلاثة أيام وطوى، ثم أفطر الليلة الثالثة على تلك النخالة المشوية

يقال إنه في تلك الليلة تغشى أهله (نكح زوجته) فكان منها عبد العزيز وجاء منه عمر بن عبد العزيز، وكان واحد زمانه في عدله وإنصافه وزهده وإحسانه، وكان على طريقة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، وقيل إن ذلك ببركة نيته وصيامه وأكله من ذلك الطعام

ينبغي لصاحب الولاية أن يجعل من هذه الآثار وسير أصحابها نصب عينيه، وأن يقبل المواعظ التي وعظ بها غيره، فكلما رأي عالما سأله أن يعظه

وينبغي للعلماء أن يعظوا الملوك بمثل هذه المواعظ، ولا يغروا الملوك وأن لا يدخروا عنهم كلمة الحق، وكل من غرهم فهو مشارك لهم

والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم

الأصل الثالث

ردع الظلم والظالمين

أيها السلطان

ينبغي ألا تقنع برفع يدك عن الظلم، لكن وجب عليك تهذيب غلمانك وأصحابك وعمالك ونوابك، فلا ترضي لهم بالظلم فإنك تسأل عن ظلمهم كما تسأل عن ظلم نفسك

كتب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى عامله أبي موسي الأشعري:

أما فإن أسعد الولاة من سعدت به رعيته، وإن أشقى الولاة من شقيت به رعيته، فإياك والتبسط فإن عمالك يقتدون بك، وإنما مثلك كمثل دابة رأت مرعى مخضرا فأكلت كثيرا حتى سمنت فكان سمنها سبب هلاكها لأنها بذلك السمن تذبح وتؤكل

وجاء في التوراة:

كل ظلم علمه السلطان من عماله فسكت عنه كان ذلك الظلم منسوبا إليه وأخذ العقاب به وعوقب عليه

وينبغي للوالي أن يعلم أنه ليس من أحد أشد غبنا ممن باع دينه وآخرته بدنيا غيره

والناس يغلب عليها خدمة شهواتها، لذلك تستنبط الحيل لبلوغها

والعمال يعملون على إغراء الوالي من أجل نصيبيهم من الدنيا، فتراهم يحسنون الظلم عنده وبذا يلقونه في النار من أجل أغراضهم

وأي عدو أشد عداوة ممن يسعى في هلاكك وهلاك نفسه لأجل درهم يكتسبه ويحصله؟

ولراغب في حفظ العدل بين الرعية عليه أن يرتب غلمانه وعماله عليه، ويحفظ العمار، ينظر إليه كما ينظر لخاصة أهله، ولا يتم ذلك إلا بحفظ العدل في النفس، بألا يسلط شهوته وغضبه على عقله ودينه، وبألا يسلم العقل والدين لشهوت والغضب بل إن العادل هو من يأسر غضبه وشهوته بعقله ودينه

اعلم أيها السلطان

العقل من جوهر الملائكة وهو من جند الله، وأن الشهوة والغضب من جند الشيطان

فمن يجعل جند الله وملائكته أسارى جند الشيطان! كيف يعدل في غيرهم؟

وأول ما تظهر شمس العدل في الصدر، فإن نورها ينتشر في أهل البيت وخاصة الإمام (الملك) فيصل شعاعها إلى الرعية

ومن طلب الشعاع في غير الشمس فقد رام المحال من الطلب، وطمع فيما لا ينال

اعلم وتبين

أن ظهور العدل من كمال العقل، وكمال العقل أن ترى الأشياء على ما هيتها، وتدرك حقائق باطنها ولا تغتر بظاهرها

مثال:

إذا كان الجور على الناس لدنيا تطلبها، فأنظر مقصدك من الدنيا

فإن كانت الغاية الأكل الطيب، فأعلم بأن هذه شهوة بهيمية في صورة آدمي

لأن الشهوة لأكل الطيب ن طباع البهائم

إذا كان مقصدك لبس التاج، فإنك امرأة في صورة رجل، لأن التزين والرعونة من أعمال النساء

وإن كانت الغاية إمضاء غضبتك على أعدائك، فأنت سبع تلبس إنسان، لأن إحضار الغضب للقلب من طباع السباع

وفي حال تلخصت غايتك في أن تخدمك الناس، فأعلم بأنك جاهل في صورة عاقل، فلو عقلت لعلمت أن الذين يخدمونك إنما هم خدم وغلمان لبطونهم وفروجهم، وخدمتهم وسجودهم لأنفسهم لا لك، وعلامة ذلك أنهم لو سمعوا إرجافا (خبر كاذب مثير للقلاقل) بأن الولاية تؤخذ منك وتعطي لسواك لأعرضوا بأجمعهم عنك، وفي أي موضع علموا الدرهم خدموا وسجدوا لذلك الموضع، فعلى الحقيقة ما هاته بخدمة وإنما هي ضحكة

والعاقل من نظر أراوح الأشياء وحقائقها ولا يغتر بصورها وزخرفها

وحقيقة هذه الأعمال ما ذكرناه وبيناه، فكل من لم يتيقن فليس بعاقل، ومن لم يكن عاقلا لم يكن عادلا، ومن لم يكن عادلا مأواه جهنم، فلهذا كان رأس مال السعادات كلها العقل

[العقل زينة الرجال، وحلية الملوك الأبطال، ومفخرة السادة في الحل والترحال]

الأصل الرابع

الحلم وفضل كظم الغيظ

أن ذوي السلطان في الأغلب يكونون متكبرين، ومن التكبر يولد السخط الداعي للانتقام، والغضب غول العقل وعدوه وآفته المزمنة

وورد ذكر ذلك وتفصيله في كتاب الغضب ربع المهلكات

وإذا كان الغضب طاغيا غالبا فيجب الميل في الأمور نحو جانب العفو والحلم، ويتعود الكرم والتجاوز، فإذا صارر لك ذلك وظفرت به عادة لك ماثلت الأنبياء والأولياء، ومتى جعل إمضاء الغضب عادة ماثلت السباع والدواب

أكثر ما يكون غضب الولاة على من ذكرهم وأطال لسانه عليهم، فتراهم يسعون في سفك دمه

وقال عليه الصلاة والسلام: < ثلاث من كانت فيه فقد كمل إيمانه: من كظم غيظه، وأنصف في حال رضاه وغضبه، وعفا عند المقدرة >

وقال الفاروق عمر - رضي الله عنه -: لا تعتمد على خلق رجل حتى تجربه عند الغضب

قيل أن الحسين بن علي - رضي الله عنهما - بلغه أن رجل قال فيه كلام يكرهه، فأخذ طبقا ملآن من التمر الجني وحمله بنفسه إلى دار ذلك الرجل، فطرق الباب فقام الرجل وفتح الباب فنظر إلى الحسين ومعه الطبق فقال: وما هذا يا ابن بنت رسول الله؟، قال: خذه فإنه بلغني أنك أهديت إلي حسناتك فقابلت بهذا

قال رسول الله [صلى الله عليه وسلم]: < قد يبلغ الرجل بحلمه وعفوه درجة الصائم القائم، ويكون رجل يكتب في جريدة الجائرين ولا ولاية له ولا حكم إلا على أهل منزله >

ويروى أن إبليس رأي موسي عليه السلام فقال: يا موسي أعلمك ثلاثة أشياء وتطلب لي من الله حاجة واحدة، فقال: وما الثلاثة أشياء؟ فقال:

يا موسي احذر من الغضب والحرد، فإن الحردان يكون خفيف الرأس وأنا ألعب به كما يلعب الصبيان بالكرة

واحذر البخل، فإني أفسد على البخيل دنياه ودينه

واحذر من النساء فإني ما نصبت للخلق شركا اعتمد عليه مثل النساء

وروى ابن مسعود أن رسول الله [صلي الله عليه وسلم] كان يقسم يوما مالا فقال له رجل: ما هذه القسمة. يعني أنها ليست بإنصاف، فحكيت ذلك لرسول الله [صلى الله عليه وسلم] فغضب واحمر وجهه ولم يقل شيئا سوى أن قال: < رحم الله أخي موسى فإنه أوذي فصبر على الأذي >

فلتعلم بأن هذه الجملة من الحكايات والأخبار كفيلة بإقناع ونصح الولاة، إذا كان أصل إيمانهم ثابتا أثر فيه هذا القدر

فإن لم يؤثر ما ذكرناه فهم يكونون بهذا قد أخلوا قلوبهم من الإيمان، وإنه لم يبقي من إيمانهم إلا الحديث باللسان

عامل يتناول من أموال المسلمين في كل سنة كذا وكذا ألف درهم ويبقي في ذمته، ويطالب بها في القيامة ويحصل بمنفوعها، ويبوء بالعقوبة والعذاب يوم المرجع والمآب

كيف تؤثر عنده هذه الأسباب؟

وهذا منتهي الغفلة، وقلة الدين وضعف النحلة

الأصل الخامس

أسنان المشط

إنك في كل واقعة وقضية تصل وتعرض عليك، تقدر أنك واحد من جملة الرعية، وإن الأمير سواك، فكل ما لا ترضاه لنفسك لا ترضي به لأحد من المسلمين، وإن رضيت لهم بما لا ترضاه لنفسك فقد خنت رعيتك وغششت أهل ولايتك

روى أن رسول الله [صلى الله عليه وسلم] كان قاعدا يوم بدر في ظل، فهبط الأمين جبريل عليه السلام فقال: يا محمد أتقعد في الظل وأصحابك في الشمس؟

فعوتب عليه الصلاة والسلام بهذا القدر

وقال المصطفي عليه الصلاة والسلام في حديث أخر: < من أصبح في قلبه همة سوى الله فليس من الله في شيء، ومن لم يشفق على المسلمين فليس منهم >

الأصل السادس

قضاء حاجة أهل الحوائج

لا تحتقر انتظار أرباب الحوائج ووقوفهم ببابك، واحذر من هذا الخطر أيما حذر، ومتى كان لأحد من المسلمين إليك حاجة فلا تشتغل عن قضائها بنوافل العبادات، فإن قضاء حوائج المسلمين أفضل من نوافل العبادات وهو من أعظم القربات

كان عمر بن عبد العزيز يقضي حوائج الناس، فجلس إلى الظهر وناله التعب فدخل بيته ليستريح من تعبه

فقال له ولده: وما الذي يؤمنك أن يأتيك الموت في هذه الساعة وعلى بابك منتظر حاجة وأنت مقصر في حقه؟

فقال: صدقت

فنهض من فوره وعاد إلى مجلسه

الأصل السابع

مرآتك عاداتك فأحسن إنتجاب عاداتك

أيها المعظم

لا تعود نفسك الاشتغال بالشهوات من لبس الثياب الفاخرة وأكل الأطعمة الطيبة، لكن استعمل القناعة في جميع الأشياء فلا عدل بلا قناعة

سأل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بعض الصالحين فقال: هل رأيت من حالي شيئا تكرهه؟ فقال: سمعت أنك وضعت على مائدتك رغيفين، وأن لك قميصين أحدهما لليل والآخر للنهار، فقال: غير هذين شيء؟ فقال: لا

قال: والله إن هذين لا يكونان أبدا

الأصل الثامن

الرفق واللطف

إنك متى أمكنك أن تعمل الأمور بالرفق واللطف فلا تعملها بالشدة والعنف

قال الرسول عليه الصلاة والسلام: < كل وال لا يرفق برعيته لا يرفق الله به يوم القيامة >

الأصل التاسع

إرضاء الرعية

عليك أن تجتهد من أجل أن ترضي عنك رعيتك بما يوافق الشرع

قال النبي الكريم: < خير أمتي الذين يحبونكم وتحبونهم، وشر أمتي الذين يبغضونكم وتبغضونهم ويلعنونكم وتلعنونهم >

وعلى الوالي ألا يغتر بكل من وصل إليه وأثني عليه، كما يجب عليه عدم الاعتقاد بأن الرعية مثله راضون عنه، كما أن عليه الاعتقاد بأن الذي يثني عليه يثني خوفا منه، بل ينبغي على الأمير ترتيب معتمدين يسألون عن حاله من الرعية ليعلم عيبه من ألسنة الناس

الأصل العاشر

حدود الرضا

يجب ألا يطلب رضا الناس أو آحادها بمخالفة الشرع، فإن من سخط بخلاف الشرع لا يضر سخطه

قال عمر الفاروق: إني لأصبح ونصف الخلق على ساخط

ولابد لكل من يؤخذ منه الحق أن يسخط، ولا يمكن أن يرضي الخصمين

وأكثر الناس جهلا من ترك رضا الحق لأجل رضا الخلق

كتب معاوية إلى عائشة - رضي الله عنهما -، أن عظيني عظة مختصرة، فكتبت إليه تقول: سمعت رسول الله [صلى الله عليه وسلم] يقول: حمن طلب رضا الله تعالى في سخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن طلب رضا الناس بسخط الله تعالى سخط الله عليه وأسخط الخلق عليه
>

وموجبات سخط الله برضا الناس:

ألا يأمرهم بالطاعة ولا يعلمهم أمور دينهم، ويطعمهم الحرام ويمنع الأجير أجرته والمرأة مهرها

سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس

عينان نضاختان هما مشرب شجرة الإيمان

وإذ قد عرفت شجرة الإيمان وأصولها، وتبينت فروعها، فأعلم بأن هنالك عينين للعلم تستمد الشجرة منهما الماء

العين الأولى:

في معرفة الدنيا ولما أوجد فيها الإنسان

فصل علة الخلق وسبب الوجود

اعلم يا سلطان العالم أن الدنيا منزلة وليست بدار قرار، والإنسان مسافر، فأول منازله بطن أمه وآخر منازله لحد قبره، وإنما وطنه وقراره ومكثه واستقراره بعدها

فكل سنة تنقضي من الإنسان مرحلة من مسير طويل، وكل شهر ينصرم منه فكاستراحة المسافر في طريقه، وكل أسبوع كقرية تلقاه، وكل يوم يأفل بلا عودة ككفر (قرية صغيرة) سوف يقطعه، وكل نفس كخطوة يخطوها، وبقدر كل نفس يتنفسه يقترب المرتحل من نهاية رحلته، وبذا يكون بلغ آخرته

وهذه الدنيا الغرارة قنطرة، فمن عمر القنطرة واستعجل بعمارتها فني فيها زمانه، ونسي المنزلة التي هي مصيره ومكانه، وكان جاهلا غير عاقل، وإنما العاقل الحق هو الذي لا يشتغل في دنياه إلا استعدادا منه لمعاده، ويكتفي منها بقدر الحاجة، ومهما جمع فوق الكفاية كان له سما ناقعا، ويتمنى أن تكون جميع خزائنه وسائر ذخائره رمادا ترابا لا فضة ذهبا، ولو جمع ما جمع فإن نصيبه ما يأكله ويلبسه لا غير

وجميع ما يخلفه سيكون عليه حتما حسرة وندامة ويصعب عليه نزعه وتركه عند موته، فحلالها حساب وحرامها عذاب

وإن كان قد جمع المال من حلال طلب منه الحساب، وإن كان جمع من حرام وجب عليه العذاب، وكان أشد عليه من حسرته حلول العذاب عليه في حفرته، ومع هذا جميعه إذا كان إيمانه صحيحا سالما لحضرة الواحد الديان، فلا وجه ليأسه من الرحمة والمثوبة والرضوان، فإن الله جواد كريم غفور رحيم

اعلم أيها السلطان

أن أيام الراحة في الدنيا قليلة معدودة وكثيرها تنغيص مطعم بالتعب مشوب بالنصب، وبغرتها تفوت راحة الآخرة التي هي سرمدية باقية، والملك الذي لا نهاية له ولا فناء، من أجله يسهل على العاقل أن يصبر في هذه الأيام القلائل لينال راحة دائمة بلا انقضاء

لو كان للإنسان معشوقة وقيل له إن صبرت عنها الليلة سلمت إليك ألف ليلة بلا تعب ولا نصب، وإن كنت تزورها فإنك لا تراها أبدا، فإن كان عشقه لها عظيما وصبره عنها أليما لكن يهون كل ذلك في سبيل الظفر بها دهرا بدل ليلة واحدة

إن الدنيا ليست بشيء في جنب الآخرة، ولا شبه بينهما على الإطلاق لأن الآخرة سرمدية أبدية لا نهاية لها، ولا يدرك بالوهم طولها

ولذا كان حال الدنيا في بعض صورها كالآتي:

قال رسول الله [صلى الله عليه وسلم]: < احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت، وأول سحرها أنها تريك أنها ساكنة عندك مستقرة معك، وإذا تأملتها خلتها وهي هاربة منك نافرة عنك على الدوام، وإنما تتسلسل على التدريج ذرة ذرة ونفسا نفسا >

والدنيا مثلها مثل الظل إذا رأيته حسبته ساكنا وهو متحركا مار دائما، وكذلك عمر الإنسان يمر بالتدريج على الدوام وينقص كل لحظة، وكذلك الدنيا تودعك وتهرب عنك وأنت غافل لا تخبر وذاهل لا تشعر

وقال الشاعر في هذا المعنى:

وما الدنيا وإن كثرت وطـــابت ... بها اللـــذات إلا كالســـراب
يـــمر نعيمـــها بعد التـــذاذ ... ويمضي ذاهبـــا مر السحـــاب

جاء في الخبر أن الدنيا يؤتى بها يوم القيامة في صورة عجوز قبيحة مشوهة زرقاء العين وحشة الوجه قد كشرت عن أنيابها، فإذا رآها الخلائق قالوا نعوذ بالله من هذه القبيحة المشوهة، فيقال لهم: هذه الدنيا التي كنتم عليها تتحاسدون، ولأجلها كنتم تتحاقدون وتسفكون الدماء بغير حق، وتقطعون أرحامكم وتغترون بزخرفها، ثم يؤمر بها إلى النار فتقول: إلهي أين أحبابي؟ فيؤمر بهم فيلقون في نار جهنم

اعلم أيها السلطان

أمور الدنيا أول ما تبدو يظنها الإنسان قريبة مختصرة وأن شغلها لا يدوم، وربما كان من بعض أشغالها وأحوالها أمر يتسلسل منه أمر وينفق فيه بضاعة العمر

وعيسى عليه السلام قال:

طالب الدنيا كشارب ماء البحر كلما ازداد شربا، ازداد عطشا ولهبا فلا يزال يشرب حتى يهلك ولا يروى

روى أبو هريرة - رضي الله عنه -، أن النبي [صلى الله عليه وسلم] قال: < يا أبا هريرة أتريد أن أريك الدنيا؟ >، قلت: نعم يا رسول الله. فأخذ بيدي وانطلق حتى وقف بي على مزبلة فيها رؤوس الآدميين وبقايا عظام نخرة وخرق قد تمزقت وتلوثت بنجاسات الآدميين، فقال: < يا أبا هريرة هذه الرؤوس التي تراها كانت مثل رؤوسكم مملوءة من الحرص والاجتهاد على جمعا الدنيا، كانوا يرجون من طول الأعمار ما ترجون، وكانوا يجدون في جمع المال وعمارة الدنيا كما تجدون، فاليوم تغيرت عظامهم وتلاشت أجسامهم كما ترى، وهذه الخرق كانت أثوابهم التي كانوا يتزينون بها وقت الرعونة والتجمل والتزين قد ألقتها الريح في النجاسات، وهذه عظام دوابهم التي كانوا يطوفون أقطار الأرض على ظهورها، وهذه النجاسات كانت أطعمتهم اللذيذة التي كانوا يحتالون في تحصيلها وينهبها بعضهم من بعض قد ألقوها عنهم بهذه الفضيحة التي لا يقربها أحد من نتنها، فهذه جملة أحوال الدنيا كما تشاهد وترى، فمن أراد أن يبكي على الدنيا فليبك فإنها موضع البكاء >

قال أبو هريرة: فبكى جملة الحاضرين

العين الثانية

في معرفة الآخرة وأنفاسها الأخيرة

اعلم يا سلطان العالم أن بني آدم طائفتان:

طائفة نظروا إلى شاهد حال الدنيا وتمسكوا بتأميل العمر الطويل

وطائفة عودوا عند الجمهور عقلاء، جعلوا النفس الأخير نصب أعينهم لينظروا إلى ماذا يكون مصيرهم وكيف يخرجون من الدنيا ويفارقونها وإيمانهم سالم، وما الذي ينزل من الدنيا في قبورهم، وما يبقي بعدهم لأعدائهم عليهم وباله ونكاله

هذه الفكرة الجليلة واجبة على الخلق، وهي على الملوك وأهل الدنيا أوجب، لأنهم كثيرا ما أزعجوا قلوب الخلائق، وأفزعوا الخلقية وأدخلوا في قلوبهم الرعب؛ فإن بحضرة الله ملكا هو ملك الموت لا مهرب لأحد من مطالبته وتشتيته، وكل عمال ملوك الدنيا لآخذون جعلهم (رشوة أو راتب) إلا من رحم ربي، إلا ملك الموت فهو لا يأخذ سوى الروح جعلا، وكل وكيل أو عامل لسلطان تنفع عنده الشفاعة وتجد الدمعة إلا قلبه الطريق والاسترحام إلى ضميره سبيل، إلا هذا الموكل بالموت فلا تنفع عنده شفاعة شافع ولا دمعة باك و لا استرحام قريب أو بعيد حر أو عبد، وكل مندوب عن سيد أو ملك يمهل ونادرا ما يعجل، إلا السيد المنوط به نزع الروح فإنه لم يتأخر ولم يؤخر نفسا واحدة، وعجائب أحواله كثيرة، ندكر منها:

قصة إرم باني إرم ذات العماد على أرجح التقديرات: أخبرنا وهب بن منبه، وكان من علماء اليهود وأسلم، أنه كان في زمن مضي ملك عظيم أراد أن يختال في الأرض بصحبة رجالات مملكته، فأمر بإحضار فاخر الثياب، وأمر بعرض الخيول المعروفة وعتاقه الموصوفة، فأختار جوادا يعرف بالسبق، فركبه بالمركب والطوق المرصع بالجوهر، وجعل الحصان يعدو في عسكره، ويفتخر بتيهه وتجبره، فحضر الشيطان الرجيم إبليس اللعين فوضع فمه في منخره ونفخ هواء الكبر في أنف أنفته، فقال الطاغية في نفسه: من في العالم مثلي؟ وتمكن منه الكبرياء، وعدا يزهو في خيلاء، ولا ينظر لأحد لعجبه وفخره، فوقف بين يديه رجل رث الثياب، فسلم الغريب ولم يجد من الملك جواب، فقبض في جرأة عنان فرسه، فقال الملك: ارفع يدك فإنك لا تدري بعنان من قد أمسكت! فقال: لي إليك حاجة، فقال: اصبر حتى أنزل، فقال: حاجتي في هذه الساعة لا عند نزولك، فقال: اذكر حاجتك! فقال: إنها سر لا أقولها إلا في أذنك، فأطرق العنيد بسمعه فقال له الرجل: أنا ملك الموت أريد قبض روحك، فقال: أمهلني مهلة أودع فيها أهلي! فقال: كلا لا تعود تراهم أبدا فإنك قد فنيت مدة عمرك. وأخذ روحه من على ظهر فرسه فخر ميتا

قال يزيد الرقاشي:

كان في زمن بني إسرائيل جبار من الجبابرة، فدخل عليه رجل في يوم من الأيام وهو جالس على سرير ملكه، كان الرجل منكر الصورة هائل الهيئة، صاح الملك في وجهه: من أنت أيها الرجل؟ ومن أمرك بدخول داري؟ فقال: أنا من لا يحجبه حاجب، ولا يستأذن ملك ولا زاهد ولا يرهب سياسة سلطان، ولا أحد عز أو ذل فار من قبضتي

فلما سمع الجبار هذا، خر على وجهه ووقعت الرعدة في جسده، فقال الطاغية: أنت ملك الموت؟ قال: نعم. قال: أمهلني يوما واحدا لأتوب من ذنبي ... أقسمت بالله عليك!

فقال: كيف أمهلك، وأيام عمرك محسوبة، ولم يبق لك نفس واحد

فقال: من يكون عندي، إذا نقلتني إلى لحدي؟ قال: لا يكون عندك سوى عملك. فقال: ليس عندي عمل، قال: لا جرم أن يكون مقيلك إلى النار، وقد استحققت غضب الجبار، فبئس الدار والقرار، وتعسا لك أيها المجرم الكفار

يقال إن ملك الموت دخل على سليمان بن داود عليهما السلام، فجعل يحد نظره ويطيل بصره إلى رجل من ندماء نبي الله، فلما خرج قال ذلك الرجل: يا نبي الله من كان ذلك الرجل؟ فقال: ملك الموت، فقال: أخاف أن يقبض روحي فخلصني من يده!، فقال: كيف؟، قال النديم: تأمر الريح أن تحملني في هذه الساعة إلى بلاد الهند، لعله يضل عني

فأمر سليمان الريح فحملته، فعاد ملك الموت ودخل على سليمان بن داود فقال له نبي الله: لأي سبب كنت تطيل النظر لنديمي؟ قال: كنت أتعجب منه لأني أمرت أن أقبض روحه في أرض الهند، وكان بعيدا عنها إلى أن حملته الريح إليها، فكان ما قدره الله تعالي

اعرف بأن هذه المرويات وغيرها، فهي تعرف بحكايات النفس الأخير

وآن لك أن تتيقن المعرفة بها، سواء صدق أو كذب القصاصون، فإن العبرة بالجوهر وليس بمدي صحة هذه القصة وصحة نسبتها، فهذا مما يجب ألا يشغلك عن فهم أهم عبرة وهي: لك ساعة وهي قادمة تأخرت أو تقدمت فكيف تريد لقاء الله يا عبد الله؟ أحبب لقاءه يحبب لقائك

واعلم أن أهل الغفلة لا يحبون سماع قصص الموت، لأنها تبرد حرارة الدنيا في قلوبهم، وتقتل حياة الشهوة في نفوسهم

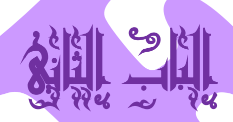
جاء في الخبر:

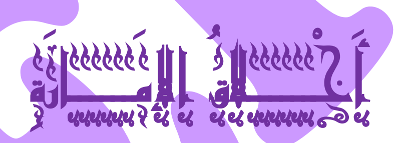
أنه من أكثر ذكر الموت وظلمة اللحد كان قبره روضة من رياض الجنة، ومن نسي الموت وغفل عن ذكره كان قبره حفرة من حفر جهنم

سئل عليه الصلاة والسلام: من أعقل الناس وأحزمهم؟ فقال: < أعقل الناس أكثرهم للموت ذكرا، وأحزمهم أحسنهم له استعدادا، له شرف الدنيا وكرامة الآخرة >

ومن عرف الدنيا كما عرفناها، وذكر النفس الأخيرة ونفس الآخرة، سهل عليه كل أمره وقوي أصل شجرة الإيمان في قلبه، ونمت فروعها عنده، ولقي ربه وإيمانه سالم

أنار الله بصيرة سلطان العالم، ليرى الأشياء على ماهيتها ويكشف له حقيقتها، اجتهادا منه لآخرته، وليوفق الله السلطان لعدل ويحسن لرعيته فإن فيهم ألف ألف (ملايين البشر) من الخلائق، فإن كان منه نحوهم ما رجونا، كان الكل شفعاء له عند الله، ومن شفعت فيه هذه الخلائق نحسبه آمنا يوم القيامة من العذاب، وإن كان ذا سيرة غير التي ذكرنا ورجونا كان الكل خصماءه، وصار أمره عظيم الخطر، وإذا استحال الشفيع خصما أشكل الأمر


الباب الثاني


أخلاق الإمارة

الفصل الأول

في ذكر العدل والسياسة وذكر الملوك وسيرهم

أيها الملك

اعلم يقينا أن الله سبحانه اختار من بني آدم طائفتين:

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ليقيموا على عباده الدليل ليعبدوه، ويوضحوا لهم السبيل لمعرفة الله

واختار الملوك لحفظ العباد من عدوان بعضهم البعض، ملكهم أزمة الإبرام والنقض (القيادة)، فربط بهم مصالح خلقه في معايشهم بحكمته، وأحلهم أشرف محل بقدرته، كما جاء في الخبر: السلطان ظل الله في أرضه

[والسلطان العادل واجب على الناس محبته وطاعته كما بينت الآيات والأحاديث، كما أن الخروج عليه هو فساد في الأرض]

وبيان العدل وكشف هوية العادل لا تكون إلا فيمن عدل بين العباد، وحذر من الجور والفساد

والسلطان الظالم شؤم لا يبقي ملكه ولا يدوم، لأن النبي صلوات الله وسلامه عليه يقول: < الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم >

وفي التاريخ بيان لمدة سيادة المجوس على العالم مدة قاربت الأربعة آلاف سنة، وإنما دامت فيهم كل هذه السنون إلا بعدلهم النسبي مع أنهم كفرة، فقد حفظوا أمور رعيتهم بالسوية

أورد بعض القصاصين خبرا جاء فيه:

بأن الله جل ذكره أوحى إلى داود عليه السلام أن أنه قومك عن سب ملوك العجم فإنهم عمروا الدنيا وأوطنوها عبادي

فليعلم إذا أن عمران البلاد وخرابها من الملوك، فإذا كان العدل من ملوكها عمرت وأمنت الرعية كما كانت الحال أيام بعض ملوك بلاد فارس مثل: أردشير (ويلفظ احيانا ازدشير) وأفريدون، وبهرام كور وكسرى أنوشروان

وإذا جار السلطان خربت الدنيا كما كانت في عهد الضحاك وافراسياب وبرزدكنه الخاطئ وأمثالهم

وهكذا كان الحال في الدنيا إلى أن استولى أهل الإسلام، وغلبوا العجم وأزاحوهم عن بلادهم ودان لهم ملك تلك الأقطار والديار، وقويت دولة دين الإسلام، ببركة التوحيد وببركة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، وذلك في عهد خلافة عمر بن الخطاب الفاروق العادل - رضي الله عنه -

فليكن في علم القارئ أن هؤلاء الملوك الذين عددنا بعضهم كانوا أصحاب الدنيا وملوك الأرض، وأنهم بلغوا من الحياة كل مرادهم، وصرفوا باللذات أوقاتهم، ومضوا وبقيت أسماؤهم وسماتهم، ولتعلم أن الناس إنما هم الحديث الذي يبقي بعدهم، فكل إنسان يذكر بالذي كان يفعله (إن ذكر)، وينسب إليه ما كان يعمله، إن خيرا فخير وإن شرا فشر

لذا وجب على الإنسان الكيس أن يزرع بذر الإحسان، وأن ينفي عن نفسه العيوب الفاحشات، والخطايا الموبقات، لا سيما السادة الملوك، ليبقى لهم حسن الاسم، وصالح الرسم، ولئلا يذكر بالقبيح، ولا تعرض في طيات سيرته ما يشين، وقد حل بالضريح، كما قال الشاعر:

أهــرب من الــذنب وتب يــا فــتى ... وإن بــدا منك فعد وأنــدم
وأنــف عن نفســك مــا شانها ... ومن مساوي الدهر خف تســلم
وبعــدك يبــقى الــذكر لا غيــره ... فــكن حــديثا حــسنا تغــنم

يقال إن ذكر الرجال بعد موتهم حياة ثانية لهم، فعلى العقلاء تدبر حال صالح الملوك وقراءة سير هؤلاء النجباء، ولينظر كل مبصر في حال الدنيا فإنها قليلة الوفاء كثيرة البلاء، لا صالح بقي عليها ولا طالح سلم فيها

وليجتهد العاقل في تجنب اصطناع الخصوم فإن أمرهم صعب، والله جل جلاله لا بد من أن ينصفهم يوم القيامة، ويأخذ من الظالم للمظلوم، والدنيا كلها لا تستحق من الفطن أن يخاصم من أجلها الناس

كان أبو علي بن إلياس إسفهسلار (مقدم العسكر) نيسابور، فحضر يوما عند الشيخ أبي علي الدقاق رحمه الله، وكان زاهد زمانه وعالم أوانه، فقعد على ركبتيه بين يديه، وقال له: عظني! فقال له أبو علي: أيها الأمير، أسألك مسألة وأريد الجواب عنها بغير نفاق. فقال: أجل أجيبك

فقال: أيها الأمير أيما أحب إليك المال أو العدو؟ فقال: المال أحب إلي من العدو. فقال: كيف تترك ما تحبه بعدك وتصطحب العدو الذي لا تحبه معك؟ فبكي الأمير ودمعت عيناه وقال: نعم الموعظة هذه!

وجميع الوصايا والحكم تحت هذا الكلام

إن الله أرسل محمدا عليه الصلاة والسلام نبيا أخيرا حتى عادت ببركته دار الكفر دار إيمان، وأظهره في أسعد وقت وأوان، وعمر الدنيا بشريعته، وختم الأنبياء بنبوته

اعلم جلالتك

بأن الصيت الحسن والاسم الجيد خير الأشياء. الملوك الذين سبقوا أنوشروان كانت همتهم في عمارة الدنيا، والعدل بين الرعية، وحفظ الجسم بالسياسة والإنالة، وآثار عمارتهم التي أثروها إلى اليوم ظاهرة في العالم، وكل بلد يعرف باسم ملكه لأنهم عمروا المواضع وبنوا الضياع والمزارع، واستخرجوا القنوات والمصانع، وأظهروا ما كان خافيا من مياه العيون

وجميع ما ذكرناه كان أنوشروان يعمره بعدل وإنصاف (بالنسبة لمن هو في حالته من فساد المعتقد)، مع تجنبه الإسراف المشين

يقال:

إن أنوشروان ادعي المرض، وأنفذ أهل الثقة والأمناء ليطوفوا بأكناف مملكته، وطلب منهم إحضار لبنة عتيقة من قرية خربة ليتداوى بها، وقال أن الأطباء وصفوها له دواء

فبحث الجمع وطافوا جميع الولايات وعادوا، فقالوا: ما وجدنا مكانا خربا ولا لبنة عتيقة

ففرح أنوشروان أيما فرح، وقال: أردت أن أجرب حكمي، وأختبر باطن مملكتي، ولأعلم هل بقي خراب لأعمره، فالآن لم يبق مكان إلا هو عامر، الآن الآن تمت الأمور وانتظمت الأحوال، ووصلت العمارة درجة الكمال

واعلم

بأنه كلما كانت الولاية أعمر، كانت الرعية أوفى وأشكر، وهذا مصداق قول العلماء وخلاصة فهم الحكماء:

إن الدين بالملك، والملك بالجند، والجند بالمال، والمال بعمارة البلاد، وعمارة البلاد بالعدل في العباد

لذا لا تراهم يوافقون أحدا على الجور والظلم، ولا يرضون لحشمهم بالخرق والغشم، علما منهم أن الرعية لا تثبت على الجور، وأن البلاد تخرب إن استولى عليها الظالمون، ما يدفع العباد للهروب للولايات والممالك التي بها العدل، وهذا يدفع لوقوع النقص في الملك، ويقل في البلاد الدخل، وتخلوا الخزائن من الأموال، ويتكدر عيش الرعايا، لأنهم لا يحبون جائرا، ولا يزال دعاؤهم عليه متواترا، فلا يتمتع بمملكته، وتسرع إليه دواعي هلكته

الظلم نوعان:

- ظلم السلطان لرعيته، وجور القوي على الضعيف، والغني على الفقير
- ظلمك لنفسك، وذلك من شؤم معصيتك، فلا تظلم ليرفع عنك الظلم

كان موسى عليه السلام يناجي الله عز وجل على الطور

فقال في مناجاته: إلهي أرني عدلك وإنصافك. فقال له: أنت رجل عجول حاد جريء لا تقدر أن تصبر. فقال: أقدر على الصبر بتوفيقك. فقال له المولى عز وجل: اقصد العين الفلانية وأختف بأزائها وأنظر إلى قدرتي وعلمي بالغيوب

فمضى موسى للعين وبتل قعد مختفيا، فوصل العين فارس، فنزل عن فرسه وتوضأ من العين وشرب من مائها، وحل من وسطه هميانا (كيس النقود)، فيه ألف دينار، فوضعه إلى جانبه وصلى

ثم ركب ونسي كيس المال في موضعه، فجاء صبي فشرب من العين وأخذ النقود، ثم جاء بعده شيخ أعمي فشرب من الماء وتوضأ ووقف في الصلاة، فذكر الفارس الهميان فعاد إلى العين فوجد الشيخ فسأله: إني نسيت هميانا فيه ألف دينار في هذا الموضع

فقال الأعمى: تعلم أني أعمى فكيف أبصرت هيمانك؟، فغضب الفارس وجذب السيف فضرب الأعمى فقتله، وفتشه فلم يجده فمضى وتركه

عند ذلك سأل موسى المولى عز وجل: إلهي وسيدي قد نفذ صبري وأنت عادل فعرفني الحق فيما أبصرت؟

فهبط جبريل عليه السلام وقال: يا موسى! الباري تعالي يقول:

أنا عالم الأسرار أعلم ما لا تعلم...

أما الصبي الصغير الذي أخذ الهميان فأخذ حقه وملكه، وذلك أن أبا الصبي كان أجيرا لذلك الفارس فاجتمع عليه بقدر ما في الهميان، فالذي أخذه الصبي حقه

أما ذلك الأعمى فإنه قبل أن يعمى قتل أبا الفارس، فقد اقتص منه ووصل كل ذي حق إلى حقه

وعدلنا وإنصافنا دقيق

فلما علما موسى ذلك تحير واستغفر

أوردنا هذه الحكاية ليعلم العقلاء، ويتصبر الألباء، أن الله جل ذكره لا يخفى عليه شيء، وأنه ينتصف من الظالم في الدنيا، ولكن نحن غافلون عما جاءنا، ولا ندري من أين أتانا، وبأي ذنب جزينا

قيل أن ذي القرنين سئل أي شيء أنت به أكثر سرورا؟، فقال: شيئان:

أحدهما العدل والإنصاف، والثاني أن أكافئ من أحسن إلى بأكثر من إحسانه

وقال موسى عليه السلام:

إن الله تعالى لم يخلق شيئا في الأرض أفضل من العدل، والعدل ميزان الله في أرضه من تعلق به أوصله الجنة

قال قتادة: الظلم ثلاثة أضرب:

ظلم لا يغفر لصاحبه، وظلم لا يدوم، وظلم يغفر لمقترفه

- الذي لا يغفر لصاحبه هو الشرك بالله تعالى، قال سبحانه: < إن الشرك لظلم عظيم >
- أما الذي لا يدوم ظلم العباد بعضهم لبعض
- أما الذي يغفر لصاحبه فهو ظلم العبد لنفسه بارتكاب الذنوب ثم يرجع إلى ربه ويتوب، فإن الله يغفر برحمته له، ويدخله الجنة بفضله

الدين والملك توأمان ولدا من بطن واحدة

فالواجب على الملك إعزاز الإسلام، وعمارة الثغور بإنفاذ العساكر والحماة لها، والاجتهاد في الحق، وإعادة رونق السنة النبوية والسيرة المرضية، لتحمد عند الله طريقته، وتعظم في الخلق هيبته، لتخاف الأعداء سطوته، ويكبر في عين أضداده، ويعظم عند أنداده، وذلك مما يعلى من قدره وبهاؤه ومنزلته

وعلى جلالته تنزيه نفسه عن مشاركة الرعية في الأشياء المذمومة، والأفعال المشؤومة

كما يجب عليه احترام الصالحين، وأن يثيب على الفعل الجميل

ومتى كان السلطان بلا سياسة وكان لا ينهى المفسد عن الإفساد، وتركه على مراده، أفسد عليه أموره في سائر البلاد

قالت الحكماء:

إن طباع الرعية نتيجة طباع الملوك

لأن العامة ينتحلون إنما ينتحلون ويركبون الفساد وتضيق أعينهم اقتداء بالكبراء، فإنهم يتعلمون منهم ويلزمون طباعهم

أنظر إلى الوليد بن عبد الملك من بني أمية كان مصروف الهمة إلى العمارة والزراعة

وكلن سليمان بن عبد الملك همته في كثرة الأكل وطيب الطعام وقضاء الأوطار، والمهمات وبلوغ الشهوات

وكانت همة عمر بن عبد العزيز في العبادة والزهد

قال محمد بن علي الفضل:

ما كنت أعلم أن طباع الرعية تجري على عادة ملوكها حتى رأيت الناس في أيام الوليد قد اشتغلوا بعمارة الكروم والبساتين، واهتموا ببناء الدور وعمارة القصور

ورأيتهم في زمن سليمان بن عبد الملك قد اهتموا بكثرة الأكل وطيب الطعام، حتى كان الرجل يسأل صاحبه أي لون اصطنعت، وما الذي أكلت

ورأيتهم في أيام عمر بن عبد العزيز قد اشتغلوا بالعبادة، وتفرغوا لتلاوة القرآن، وأعمال الخيرات، وإعطاء الصدقات

ليعلم أن في كل زمن يقتدي الرعية بالسلطان ويعملون بأعماله، ويقتدون بأفعاله، من القبيح والجميل، واتباع الشهوات وإدراك الإرادات

وقالت الحكماء:

الملك كالسوق، فكل شخص حامل إلى السوق ما يعلم أنه فيه نافق (رائج)، وما يعلم أنه كاسد (غير صالح) لا يحمله لذاك السوق

[وقصة الرجلان اللذان تخاصما على كنز عند أنوشروان معروفة، جاء فيها باختصار:

باع رجل قطعة أرض لرجل، فمشتري الأرض وجد بها كنزا، فذهب ليرده لمن يحسبه أحق به منه، لكن صاحب الأرض رفض قبوله، وقال: بعتك الأرض، وما وجدته فهو لك!

رفض المشتري رفض البائع وأصر عليه بأن يأخذ كنزه!، قائلا: اشتريت أرض ولم أشتري أرض وكنز

ترافعا الاثنان عند أنوشروان الملك، ففرح بهما جدا، وقال لهما بعد الاضطلاع على وضعهما: اجعلا هذا الكنز، تكاليف تجهيز عرس ولديكما، فإن أحب أن يكون بينكما وصلة وقرابة

فرضيا وصاروا عائلة]

لو أن الرجلين كانا في زمن سلطان جائر لقال كل واحد منهما الكنز لي، ولكنهما علما أن ملكهما عادل فطلبا الحق، وآثرا الصدق

وأما الآن في هذا الزمان فكل ما يجري على أيد أمراء السوء، وولاة الجور فهو استحقاق. كما إنهم رديئو الأعمال، قبيحو الأفعال، ذوو خيانة ومعدومي الأمانة، فهم أمراء الظلم والجور، وأصحاب غشامة معتدون، فلا عجب أن هذه الأخلاق الوضيعة تسربت لجمهور المسلمين

< كما تكونوا يول عليكم >، فقد صح بهذا الحديث أن أفعال الخلق عائدة إلى أفعال الملوك

وهنا قد صح قول الحكماء: الناس بملوكهم أشبه منهم بزمانهم

وجاء في الخبر أيضا: الناس على دين ملوكهم

كان يونان وزيرا عند أنوشروان وكان معظما عنده فقال له يوما:

أيها الملك لا تركن إلى الأشرار فتخرب ولايتك وتفقر رعيتك، فيصير ملكك عندها خراب وسلطانك إلى الفقر، ويقبح اسمك في الدنيا

فكتب أنوشروان إلى عماله:

إن أخبرت أنه قد بقي في جميع مملكتي أرض خرب سوى أرض سبخة لا تقبل الزرع صلبت عامل تلك الأرض

وخراب الأرض من شيئين: عجز الملك، والآخر جوره

وكان الملوك في ذلك الزمان يتفاخرون بالعمارة ويتحاسدون على اجتماع المملكة

على الملك أن يسلك طريق الذين تقدموه، ويعمل على سننهم، ويقرأ كتب مواعظهم وقضاياهم، فإنهم كانوا أطول أعمارا، وأكثر تجارب واعتبارا، وإنهم فرقوا بين الجيد والرديء، وعرفوا الجلي والخفي

طلب أنوشروان من وزيره يونان مدح الملوك المتقدمين، فقال فيهم ثلاثة أشياء:

ما وجدت لهم في شغل من الأشغال ولا عمل من الأعمال كذبا قط، ولا رأيت لهم بشيء جهلا، ولا رأيت لهم في حال من الأحوال غضبا

قال أنوشروان: امدحهم بشيئين، قال يونان:

كانوا دوما يسارعون إلى الخير وعمله، وكانوا دائما يحذرون من أعمال الشر

فقال له أنوشروان: الآن بشيء واحد، قال الوزير يونان:

كانت سلطنتهم وجرأتهم على أنفسهم أكثر مما كانت على غيرهم

فطلب أنوشروان الكأس وقال:

ولهذا الكأس سرور بالكرام الذين يأتون بعدنا ويملكون تاجنا وتختنا، ويذكروننا كما نحن نذكر من تقدمنا

أيها الملك

أشقى الناس من اغتر بملكه وعمر الدنيا وهو لا يدري كيف ينبغي أن يعيش فيها، فيعبر دنياه بالتعب، ويحصل في أخراه بالندم السرمد، والعذاب المؤبد

وإنما كان قصد أولئك واجتهادهم في عمارة الدنيا ليبقى لهم فيها طيب الذكر، مدى الأيام والدهر

أنظر كيف كانت سيرتهم مع رعيتهم يا سلطان المسلمين، فيجب أن تسمع أقوال هؤلاء الملوك العظام، وتنظر أعمالهم، وتقرأ حكاياتهم من الكتب وما ينظر فيها من نعت (وصف) عدلهم وإنصافهم، وحسن سيرتهم، وطيب خبرهم وذكرهم الجاري على ألسنة الخلق إلى يوم القيامة

كان لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من العدل والسياسة إلى حد أقام فيه الحد والعقاب على ولده حتى مات

وكان إذا أنفذ عمالا إلى أعمال قال لهم:

اشتروا دوابكم وأسلحتكم من أرزاقكم، ولا تمدوا أيديكم إلى بيت مال المسلمين، ولا تغلقوا أبوابكم دون أرباب (أصحاب) الحوائج

وأول من دعي بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فإن أبا بكر رضي الله عنه دعوه بخليفة رسول الله [صلى الله عليه وسلم]، فلما وصل الأمر إلى عمر كانوا يقولون يا خليفة خليفة رسول الله، فكان يطول ذلك فقال:

يا أيها المؤمنون سموني أميرا، فإني أميركم وإن دعوتموني أمير المؤمنين فأنا ذلك عمر بن الخطاب

[وبيان لما جاء في الأثر وتحريا للحق، فقد ورد بأن صاحب تسمية أمير المؤمنين هو سيدنا عمر بن العاص الذي يعد أحد دواهي العرب، ودواهي العرب أربعة وهم: عمر بن العاص، المغيرة بن شعبة، معاوية بن أبي سفيان وزياد بن أبيه]

سئل خازن بيت المال: هل انبسط عمر في بيت المال؟، فقال: كان في أول الأمر إذا لم يكن له شيء يتقوت به أخذ قليلا برسم القوت، فإذا حصل عنده شيء أعاده إلى بيت المال

فإن شئت أن تعلم عدل السلطان وتقيته سبب لجميل ذكره، ونيل فخره، فأنظر في أخبار عمر بن عبد العزيز فإنه لم يكن لأحد من بني أمية وبني مروان مثل مدحه ومحمدته، ولا يدعي إلا له، ولا يثني إلا عليه، لأنه كان عادلا تقيا كريما، حسن السيرة تقي السريرة

جاء في الأثر:

كان في أيام عمر بن عبد العزيز قحط عظيم، فوفد قوم من العرب، فقدموا منهم رجلا للكلام فقال:

يا أمير المؤمنين إنا أتيناك من ضرورة عظيمة، وقد يبست جلودنا على أجسادنا لفقد الطعام، وراحتنا في بيت المال، وهذا المال لا يخلوا من ثلاثة أقسام:

إما أن يكون لله، أو لعباد الله، أو لك

فإن كان لله فالله غني عنه، وإن كان لعباد الله فآتهم إياه، وإن كان لك فتصدق به علينا إن الله يجزي المتصدقين

فتغرغرت عينا عمر بن عبد العزيز بالدموع وقال: هو كما ذكرت، وأمر بحوائجهم فقضيت من بيت المال

يقال إن عمر بن عبد العزيز كان ينظر ليلا في قصص الرعية وروزنامجاتهم في ضوء السراج، فجاء غلام فحدثه في سبب كان يتعلق ببيته، فقال له عمر: أطفئ السراج وحدثني، فإن هذا الدهن من بيت مال المسلمين، فلا يجوز استعماله إلا في أشغال المسلمين

كذا يكون حذر السلطان وتوقيه إذا كان عادلا

ولما كان الأمراء أصحاب سياسة، وذوي السلطان من الحكام بالعدل يحكمون، كذلك كانت حواشيهم وخدمهم على قاعدتهم، والعدل التام هو أن تساوي بين المجهول الذي لا يعرف وبين المحتشم صاحب الجاه المعروف في مقام واحد في الدعاوى، وتنظر أيضا بعين واحدة، ولا تفضل أحدهما على الآخر لأجل أن هذا غني وذاك فقير، فإن الجوهر والخزف في الآخرة بسعر واحد!

ولا يحرق العاقل نفسه، لحشمة الأغيار

وإذا كان لرجل ضعيف على سلطان من السلاطين دعوى، فينبغي أن يقوم من صدر مملكته ويعمل بحكم الله تعالى، وينصف ذلك العبد الضعيف، ويرضيه ولا يحيف عليه، ولا يستحي من الحق، ويعمل بقوله تعالي: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان)

[كما جاء في سيرة أمير المؤمنين علي - رضي الله عنه- ، عندما تخاصم على درع مع يهودي والأثر معروف عند الخاص والعام]

[وأما الحقيقة الأخرى فهي التي تقول:

إن كان للملك على آخر حق، وجب على سموه أن يسامحه ويمن به عليه، ويأمر عماله الثقات أن يقتدوا بمثاله ويعملوا بسيرته، لئلا يسأل عنه يوم القيامة]

يقال إن إسماعيل بن أحمد أمير خراسان نزل بمرو

وكان رسمه (وخطته، سياسة انتهجها) في كل موضع ينزله أن يأمر المنادي أن ينادي في العسكر إن الجند ما لهم في الرعية شغل

فمضى رجل من الخربندية ودخل مبطخة قوم فتناول من الطبيخ قدرا يسيرا، فجاءوا إلى باب الملك واستغاثوا، فأمر بإحضاره فأحضره بين يديه فقال له: ألك علينا أجرة؟ فقال: نعم، فقال: أما سمعت لمنادي؟ فقال: بلى، قد سمعته، فقال: ما حملك على آذيت رعيتي؟ قال: أخطأت

قال: لا أقدر لأجل خطئك على دخول النار، [قيل إنه أمر به فقطعت يده، إقامة لحد السرقة، وإن العسكري لمحظوظ! فلوا عد فعله إفسادا في الأرض لأقيم عليه حد الحرابة الذي هو أشد وأنكى]

[جاء في كتلب سير الملوك خبر عن إسماعيل الساماني الذي جعل هتك الظلم عنده غاية، ورفع العدل في مكان وولاية، حيث قيل أنه بعد أن ينتهي من الحكم بين المتخاصمين، يقوم من موضعه ويقبض على محاسنه ويبوحه وجهه نحو السماء ويقول:

إلهي هذا جهدي وطاقتي قد بذلتهما، وأنت عالم الأسرار تعلم نيتي ولا أعلم على أي عبد من عبادك حفت، ولا لأيهم ظلمت، وما أنصفت أنا واحدا من أصحابي، فأغفر لي يا إلهي من ذلك ما لا أعلم

فلما كان نقي النية، جميل الطوية، لا جرم علا أمره، وارتفع قدره، وكان عسكره ألف فارس معتدين بالسلاح، مقنعين بالحديد وببركة ذلك العدل والإنصاف، أظفره الله تعالى بعمرو بن ليث حتى قبض عليه وفتح بلاد خراسان

وكان أن بقيت الدولة في عنصر السامانية مائة وثلاثين سنة، فلما انتقل الأمر إلى أصاغرهم وصبيانهم ظلموا الخلق وتعدوا الحق فزال ملكهم]

قال عليه الصلاة والسلام: < عدل السلطان يوما واحد خير من عبادة سبعين سنة >، وقال أيضا: < من سل سيف الجور سل عليه سيف الغلبة ولازمه الغم >

قال الشاعر:

تقطب منك طلق الوجـــه يوما ... ترى بالعـــدل عن جور جزاء
فقـــل للناس ما تـــهوى استماعا ... ولا تـــقتل إن اخترت البقاء

ورد في الأخبار أن داود عليه السلام كان ينظر يوما فرأى شيئا ينزل من السماء مثل النخالة فقال: إلهي ما هذا؟ فأجابه الله عز وجل: هذه لعنتي أنزلها على بيوت الجائرين

لما قعد أنوشروان في المملكة كتب إليه يونان الوزير فقال:

اعلم أيها السلطان أن أمور الملك على ثلاثة أشياء: إما أن ينصف رعيته ولا ينتصف منهم وذلك هو الدرجة العليا، أو ينتصف وينصف وهي الدرجة الوسطى، أو ينتصف ولا ينصف وهي الدرجة السفلى

أنظر جلالتك إلى هذه الدرجات وأختر أيها أردت، وأنا أعلم أن مولانا المعظم يختار الأولى كما قال الشاعر:

من أنصف الناس ولــم ينتصف ... بفــضله منهم فــذاك الأمــير
ومن يرد إنصافهم مــثلما ... أنــصف أضحى مــاله مــن نظير
ومـــن يرد إنصـــافه وهـــو لا ... ينصفهم فـــهو الدنـــيء الحقير

دخل شبيب بن شيبة على المهدي، فقال له:

يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك الدنيا فأعط رعيتك قسطا من طيب عيشك!

فقال المهدي: وما الذي ينبغي أن تعطى الرعية؟، فقال له:

العدل، فإنه إذا نامت الرعية في أمن منك نمت آمنا في قبرك

وقال:

احذر يا أمير المؤمنين من يوم لا ليلة بعده، ومن ليلة لا يوم بعدها، واعدل ما استطعت فإنك تجازى بالعدل عدلا وبالجور جورا، وزين نفسك بالتقوى فإنك في (يوم) الحشر لا يعيرك أحد زينته، كما قال الشاعر:

فحل نفسك بالتقـوى وزينها ... فـلن يعار تقـي في الناس من رجـل
وليس تبلى يد المعروف فأحظ بـها ... تربح كثيرا ورأس المال لم يزل

سؤال قيصر: بماذا يكون دوام العدل؟

جواب أنوشروان: إني لا أعمل شيئا بجهالة، وإذا أمرت بأمر تممته ولا أتركه لخوف ولا لرجاء

يعني إذا أمر بشيء لا يبطله لأجل من يرجوه أو من أجل ذاك الذي يخافه، وألا يبدل أمره النافذ أبدا

سئل أرسطو (ارسطاطليس):

هل يجوز أن يدعى أحد ملكا غير الله تعالى؟، فقال: من وجدت فيه الخصال وإن كانت عارية...

العلم، العدل، السخاء، الحلم، الرقة وما ناسبها، لأن الملوك إنما كانوا ملوكا بالظل الإلهي، وضياء الحس، وطهارة النفس، وتزايد العقل والعلم، وقدم الدولة، وشرف الأصل، والدولة التي كانت في محتدهم وأصولهم، فبذلك كانوا ملوكا وسلاطين

ومعنى قولهم (فرابرذي) وهو لفظ يقابله الظل الإلهي، يتجلى في ستة عشر شيئا:

العقل، العلم، وحدة الذكاء، تدارك الأشياء، الصور التامة، الألمعية، الفروسية، الشجاعة، الإقدام، التأني، حسن الخلق، إنصاف الضعيف، محبة الرعية، إظهار الزعامة، الاحتمال، المداراة في مكانها، الرأي، التدبير في الأمور، الإكثار من قراءة الأخبار، حفظ سير الملوك، والفحص عن الأحوال والأعمال التي اعتمدها الملوك وعملوا بها، لأن هذه الدنيا بقية دول المتقدمين الذين تملكوها، ثم مضوا وانقضوا وصاروا تذكارا للناس يذكر كل إنسان بفعله

وللآخرة كنز، وللدنيا كنز، فكنز هذه الدنيا حسن الثناء وطيب الذكر، وكنز الآخرة العمل الصالح واكتساب الأجر

سأل الإسكندر أرسطو: أيما أفضل للملوك الشجاعة أم العدل؟، فقال أرسطو: إذا عدل السلطان لم يحتج إلى شجاعة

قال سقراط:

العالم مركب من العدل، فإذا جاء الجور فإنه لا يثبت ولا يستقر

سئل بزرجمهر: بأي شيء يظهر عز الملك؟، فقال: بثلاثة أشياء وهي:

- حفظ الأطراف مع دفع العدو عن الحوزة
- إكرام العلماء وإعزازهم
- حب أهل الفضل

لأنه كلما جار السلطان خاف أهل الأطراف، وإن كانت نعمهم كثيرة فإنها مع الخوف لا تنساغ، وإن كانت النعم قليلة إنساغت مع الأمن

اعلم

[أن الأمن إنما يكون مع سياسة السلطان، فيجب على السلطان أن يعمل بالسياسة، وأن يكون مع السياسة عادلا، لأن السلطان خليفة الله، ويجب أن تكون هيبته بحيث إذا رأته الرعية خافوا ولو كان بعيدا]

وسلطان هذا الزمان ينبغي أن تكون له أوفي سياسة وأتم هيبة، لأن ناس هذا الزمان ليسوا كالمتقدمين، فإن زماننا هذا زمان ذوي الوقاحة والسفهاء، وأهل القسوة والشحناء

وإذا كان السلطان منهم ضعيفا غير ذي سياسة وهيبة فلا شك أن ذلك يكون سبب في خراب البلاد، وأن الخلل يعود إلى الدين والدنيا

وفي الأثر المشهور والمعلوم ورد:

أن أمير المؤمنين علي بن أبى طالب - رضي الله عنه - سأله سفيه عصره فقال: مالنا نرى عصرك يا علي! عصر فتن وهرج ومرج، ولم نرى هذا في أيام من تقدمك مثل أبى بكر وعمر؟، فرد أمير المؤمنين برد مفحم أسكت به الدعي:

في أيام الصديق والفاروق حكموا أمثالي وأمثال عثمان، وفي زماني أحكم أمثالك من الطغام

جلالة صاحب المقام المعظم

إذا جارت الرعية سلط الله عليها سلطانا جائرا وملكا قاهرا

أعطي الحجاج بن يوسف الثقفي في بعض الأيام قصة (وريقة) مكتوب فيها: اتق الله ولا تجر على عباد الله كل هذا الجور

فرقى الحجاج المنبر وكان فصيحا فقال:

أيها الناس إن الله سلطني عليكم بأعمالكم، فإن أنا مت فلا تخلصون من الجور مع هذه الأعمال السيئة، فإن الله تعالى خلق أمثالي كثيرا، وإذا لم أكن أنا كان من هو أكثر شرا مني

قال الشاعر:

وما مـــن يد إلا يـــد الله فوقها ... ولا ظالم إلا سيبـــلى بـــأظلم

سئل بزرجمهر، أي الملوك أطهر؟ فقال: من أمنه الطاهرون وخاف منه الخطاؤون

وأما السلطان الذي لا سياسة له فليس له في أعين الناس خطر ولا محل، بل يكون الخلق عليه ساخطين ثم يذكرونه كل وقت بالقبيح، ألا ترى أن الإنسان إذا كان من عوام الولاية وتولى عليها وأراد أن يطلب الحساب من الرعية أول ما يكلمهم بالهيبة ويظهر جاهه بالسياسة لعلمه أن الرعية إنما ينظرونه بالعين الأولى؟

جاء في سياسة زياد بن أبيه أنه لما ولى العراق، رأى أهل العراق قوم عابثين يفسدون ويسرقون

فعزم على علاج القوم بالكي، فقصد المسجد ورقى المنبر وخطب خطبة، وقال بعد خطبته:

والله لئن خرج أحد بعد العشاء الآخرة لأخذن رأسه عن جسده! فليعلم الشاهد الغائب

ثم أمر مناديا بذلك ثلاثة أيام

فخرج في اليوم الرابع فوجد راعيا بغنمه، يبيت في الشارع، فسأله عن علة وجوده وهل هذا الراعي لم يسمع بأمر الحظر المفروض، فكان جواب راعي الغنم بسيط وصادق: أتيت مساء ولم أجد موضعا أستقر فيه، فنزلت مكاني إلى أن أصبح وأبيع غنمي، عبر زياد له عن تصديقه له، لكن قال له: إن أطلقتك خفت أن يذيع الخبر عني أن زيادا يقول ما لا يفعل، فتفسد سياستي وتنكسر هيبتي، والجنة خير لك مما هنا

فأمر به فضربت عنقه، واصل موكب زياد فكان كل من رآه ضرب عنقه وحز رأسه، فلما أشرقت الشمس بإذن ربها كان قد قتل ألف وخمسمائة رجل

جعل رؤوس ضحاياه على باب داره مثل البيدر، فتهوله الناس وجزعوا لما رأوه من جرم فعله

فخرج من غد يومه ذاك فلقي ثلاثمائة رجل متحدين قراره، فضرب أعناقهم كذلك

فما خرجت الناس من يومها بعد العشاء الآخرة

فلما كان الجمعة رقى المنبر وقال: أيها الناس لا يغلق أحد منكم دكانه بالليل، ومهما سرق منكم كان غرامته على

فلم يجسر أن يغلق أحد منهم دكانه تلك الليلة، فلما كان الغد جاءه رجل صيرفي مدعيا تعرضه لسرقة، وأن قيمة المسروق أربعمائة دينار ذهبي، طلب منه زياد كتمان الأمر، وقام بتعويضه بعد أن حلفه على كلامه عوضه بدلها أربعمائة أخرى

فلما حضرت الجمعة صعد زياد المنبر وقال: اعلموا أن دكان الصيرفي سرقت منه أربعمائة دينار وأنتم كلكم حاضرون، فإن رددتم ذلك فقد عاد إلى الرجل ماله، وإن لم تردوا أمرت برؤوسكم جميعا في هذه الساعة

وفي الحال توجهت أصابع الاتهام لمن كانوا يتهمون دوما بالسرقة، رد الرجل الدنانير المسروقة، فأمر زياد به فصلب في الحال

وسأل زياد يوما عن أي محل بالبصرة ليس فيه أمن؟ فقيل له: محلة بني الأزد

فأمر بترك ثوب ديباج له قيمة كبيرة بذاك الموضع، فبقي أياما ملقى بحاله، ولم يجسر أحد على الاقتراب منه ولا حتى رفعه عن الأرض

قال له أقاربه بعد ذلك: إن السياسة خير الأشياء، إلا أنك لم ترحم المسلمين أولا وأهلكت خلقا كثيرا ثانيا

فقل: قد أخذت عليهم الحجة قبل ذلك بثلاثة أيام، ومن شؤم مخالفتهم لم ينتهوا، والذي أصابهم كان من شؤم أعمالهم

[مولاي

إن العبرة من الخبر ليست الطعن في زياد بن أبيه، ولا تقريع ولاة بني أمية، بل إن الغاية هي إدراك أن السياسة نافذة ناجزة، وإن هيبة السلطان من قدرته على لزومها وإنفاذها، فإن ثبت له بطلانها كان كالأحمق الذي يلزم صنم لا يعقل، فأين كان الحق كان الملوك والولاة أولى الناس به، ولذا قيل: إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة]

الفصل الثاني

الحاجات والأعمال السلطانية

جلالتك

لا ينبغي للسلطان أن يشتغل دائما بلعب الشطرنج والنرد، وشرب الخمر وضرب الكرة والصولجان والصيد، لأن ذلك يمنعه ويشغله عن أمور الرعية، فإن لكل عمل وقتا، فإذا فات الوقت عاد الربح خسرانا، فإن الملوك القدماء قسموا النهار أربعة أقسام:

قسم منها لطاعة الله وعبادته، وقسم للنظر في الرعية وإنصاف المظلومين والجلوس بين العلماء والعقلاء ولتدبير الأمور وسياسة الجمهور وتنفيذ المراسم والأوامر وكتابة الكتب وإرسال، وقسم للأكل والشرب والتزود من الدنيا وأخذ الحظوظ من الفرح والسرور، وقسم للصيد ولعب الشطرنج والكرة وما أشبه ذلك

يقال أن بهرام كور قسم نهاره قسمين، النصف الأول كان يقضي حوائج الناس، وفي النصف الثاني كان يطلب الراحة. ويقال إنه في جميع عمره ما اشتغل يوما تاما بعمل واحد

ويجب على السلطان أن لا يرضى لغلمانه أن يتناولوا شيئا من الرعية بغير حق كما جاء في أثر أنوشروان الدي ولى عاملا ذات يوما، فأنفذ العامل زيادة في الخراج قدرها ثلاثة آلاف درهم فضي، فأمر أنوشروان برد الزيادة إلى أصحابها، وأمر بصلب العامل الجائر

وكل سلطان أخذ من الرعية شيئا بالجور والغصب وخزنه في خزائنه كان مثله كمثل رجل عمل أساس حائط ولم يصبر حتى يجف ثم وضع البنيان عليه فلم يبق الأساس ولا الحائط

سموك

ينبغي للسلطان أن يأخذ ما يأخذه من الرعية وأن يهب ما يهبه بقدره، لأن لكل واحد من هذين حدا محدودا

جاء في الأثر، أن المأمون ولى يوما أربعة نفر أربع ولايات وهي: خراسان، خوزستان، مصر وأرمينية، فأعطي لكل واحد منشورا (قرار تعينه، وكلمة لناس) *وخلع عليه بثلاثة آلاف دينار*

ثم استدعى يومئذ موبذان وقال: يا دهقان (كبير القرية) *هل كان لملوك العجم مثل هذه الخلع؟ فإنه بلغني أن خلعهم ما كانت تبلغ أكثر من أربعة آلاف درهم. فقال الموبذان: أطال الله بقاء أمير المؤمنين! كان لملوك العجم ثلاثة ليست لكم:*

- *أنهم كانوا يأخذون ما يأخذونه من الرعية بقدر ويعطونه بقدر*
- *أنهم كانوا يأخذون من موضع يجوز الأخذ منه ويعطون لمن ينبغي أن يعطى*
- *أنهم ما كان يخافهم إلا أهل الريب*

قيل أن المأمون قال له: صدقت

وجاء أن المأمون:

وجد خاتم من ياقوت أحمر في قبر كسرى أنوشروان، وذلك عندما كشف المأمون تربته، الخاتم عظيم الثمن ما رأي المأمون قبله فصا مثله، كان مكتوب على الفص:

"به مه نه مه به "وتعني" :الأجود أكبر وليس الأجود أكبر "

غلام للمأمون تناول الخاتم ولم يشعر به الخليفة، فلما علم به أمر بإعادته وأمر بإهلاك الخادم وقال:

كاد يفضحني بحيث يقال عني إلى يوم القيامة أن المأمون كان نباشا وأنه فتح تربة كسرى وأخذ خاتمه من أصبعه

سأل الإسكندر يوما حكيما من حكمائه، وكان قد عزم على سفر، فقال: أوضحوا لي من الحكمة سبيلا أحكم فيه أشغالي، وأتقن فيه أعمالي!

فقال كبير الحكماء، ويرجح أنه أرسطو:

أيها الملك لا تدخل قلبك حب شيء ولا بغضه، لأن القلب خاصته كاسمه، وإنما سمي قلبا لتقلبه، وأعمل الفكر واتخذه وزيرا، واجعل العقل صاحبا مشيرا، وأجهد أن تكون متيقظا، ولا تشرع في عمل أمر بغير مشورة، وتجنب الميل والمحاباة في وقت العدل والإنصاف، فإذا فعلت ذلك جرت الأشياء على آثارك، وتصرفت فيها باختيارك

وينبغي أن يكون الملك وقورا حليما، وأن لا يكون طائشا عجولا، قالت الحكماء: ثلاثة أشياء قبيحة وهي في ثلاثة أقبح:

الحدة في الملوك، والحرص في العلماء، والبخل في الأغنياء

من وصايا ومواعظ الوزير يونان إلى الملك أنوشروان:

يا ملك العالم ينبغي أن يكون معك أربعة أشياء دائمة: العقل، العدل، الصبر والحياء

وينبغي لك يا ملك الزمان أن تنفي عنك: الحسد، الكبر، وضيق الصدر (يريد به البخل والعداوة)

واعلم يا ملك الزمان أن الذين كانوا قبلك مضوا، والذين يأتون من بعدك لم يصلوا، فأجتهد أن يكون جميع ملوك الزمان محبيك ومشتاقيك

قيل أنه إذا تغيرت نية السلطان على قوم طارت بركاتهم وقلت خيراتهم

جاء أن الصادقين من الناس ثلاثة: الأنبياء، الملوك، والمجانين

وقيل السكر جنون، وإن المجنون يخاف من السكران لأن المجنون سكره باطن والسكران جنونه ظاهر

والويل لمن يبقي في سكر الغفلة دائما:

من أسكرته الخــمر في عقــله ... ليس عليه إن صحا من خـــجل
ومـــن يكن بالملك ذا ســكرة ... يصحو إذا مـــا الملك عنه انتـــقل

صاحب المقام العالي

والقليل جدا من كان من سكر سلطنته صاحيا، وكان المقدم على أعماله ثقة نصوحا معينا

وعلامة سكر السلطان أن يسلم وزارته إلى محتاج معوز ثم يستديمه ويتمسك به إلى أن تزول حاجته، وتنقضي فاقته، ثم يعزله وينصب غيره، فيكون مثله مثل من يربي طفلا صغيرا إلى أن يكبر بالغا كبيرا يصلح للأشغال، وإمضاء الأعمال، ثم يقتله ويستأصله

واعقل أن هناك أربعة أشياء قيل إنها على الملوك من جملة الفرائض وهي:

ابعاد الأدنياء عن مملكتهم، وعمارة المملكة بتقريب العقلاء، وحفظ العلماء وأولي الحكمة والتجربة، والزيادة في أمر الملك بالإقلال من الأعمال المذمومة

لما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز كتب إلى الحسن البصري أن أعني بأصحابك، فكتب إليه الحسن البصري:

أما طالب الدنيا فلا ينصح لك، وأما طالب الآخرة فلا يرغب فيك، ولا يجوز لسلطان أن يسلم وزارته ولا عملا من أعماله إلى من ليس بأهل، فإن سلم الأعمال إلى ذلك الرجل فقد أفسد ملكه وظهر له الخلل الوافر من كل وجه ومن كل جانب

قال الشاعر:

البيت إذا ما حـــان منه خــرابه ... ظهر التـــخلخل من أســـاس الحائــط
وإذا تولى الملك غير رجاله ... ولوا الأمور لكل فدم (عيل ثقيل الفهم) ســـــاقط

ولمن خدم الملوك ينبغي أن يكون مثل:

إذا خدمــت الملـــوك فـــالبس ... من التـــوقي أعـــز ملـــبس
وادخل إذا ما دخلت أعمى ... واخرج إذا ما خرجت أخـــرس

وأما من تبسط مع السلطان فقد ظلم نفسه ولو كان ولد السلطان، فليس للانبساط معهم في خدمتهم وجه كقول الشاعر:

إذا كـــنة للسلطان نجلا فداره ... وخف منه إن أحببت رأسك تســـلم

ومثل من تبسط مع السلطان كمثل الحواء (مربى الحيات) الذي يكون دهره مع الحيات يأكل معها وينام معها، أو كرجل في البحر بين التماسيح التي تبلع الناس فلا يزال مخاطرا حتى يهلك

إذا احتاج الملوك شخص لعلمه أو شجاعته غمروه بالمودة، فإن قضوا وطرهم لم تعد في قلوبهم محبة ولا وفاء ولا حياء

أكثر أشغال ذوي السلطان رياء [فهم يتصنعون كل شيء، فسرهم في بئر عميق لا يدركه عدو ولا صديق]، يستصغرون كبار ذنوبهم ويستعظمون صغار ذنوب غيرهم

قال سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ:

لا تصحب السلطان، وإياك وخدمته، لأنك إن كنت له مطيعا أتعبك، وإن خالفته قتلك وأعطبك

وجاء أن أصلح الأشياء للملك في أن لا يباشر الأسباب بنفسه، ويحفظ ناموسه، لأن كثير من الأرواح يتعلق بروحه وصلاح الرعية في حياته، وهذا يعني أن لا يجور على نفسه ولا يجور على الناس

لذا قيل بأنه كان لزما على السلطان ألا يجازف في الأشغال ولا يتساهل فيها

[وكان للبعض من الذين ناقشوا مسألة الإمارة وجلالة أحكامها وأعمال السلطان رأي غير، هذا فقد رأوا ضرورة المباشرة والقيادة من الأمام تأسيا بالملوك العظام ومتخلقين بخلق رسول الإسلام ومهتدين بهدي الخلفاء الراشدين المهدين من بعده. ويجب عليه أن ينيم على فراشه كل ليلة غيره، ويتحول بنفسه عن الموضع، حتى إذا قصده عدو لإتلاف نفسه وجد مكانه غيره فلا تصل يد العدو إليه]

جاء فيما ثبت من حوادث التاريخ أن الملك خسروا بن أبرويز انهزم (فر وهرب) من أمام بهرام جور، فقال:

هربت وإن كان هربي عيبا (لا يليق بالملوك) لكن بفعلي هذا أردت إنقاذ أرواح جماعة من أصحابي، لأني إن هلكت هلك بسببي أولوف الخلائق

سموك

[ينبغي للسلطان في كل زمان أن تكون لهم سياسة وهيبة ليشتغل كل إنسان بشغله، ويفلح لما هو ميسر له، وبذلك يأمن الناس بعضهم بعض]

سئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: لأي شيء لا تنفع الموعظة هؤلاء الخلق؟ فقال:

الخبر المعروف أن رسول الله [صلى الله عليه وسلم] لما أوصى عند وفاته أشار بأصابعه الثلاث وقال: < لا تسألوني عن حال أولئك >، فقال قوم من الصحابة: أشار إلى ثلاثة أشهر، وقال قوم: إلى ثلاث سنين، وقال قوم: إلى ثلاثين سنة، وقال قوم: ثلاثمائة سنة

يعني إذا مضت ثلاثمائة سنة فلا تسألوني عن حال أولئك

وكان الناس في ذلك الزمان نياما، وكان العلماء أيقاظا، واليوم العلماء نيام، والخلق موتى، فأي نفع لكلام النائم مع الميت؟

وجاء عن المصطفي [عليه الصلاة والسلام] قوله: < أمتي كالغيث لا يدري أأوله خير أم أخره > أو هكذا قال

أما زماننا هذا فهو زمان أهلك خلق كثير، وقد خبثت أعمال الناس ونياتهم إلا رحم ربي، وإذا لم يكن فيه للسلطان سياسة على الخلائق ولا هيبة لم يثبتوا على الطاعة والصلاح، كيف لا والسلاطين أست البلاء ووجار (وكر) الفساد وبيت الداء

وجاء عن النبي [صلي الله عليه وسلم] ما مضمونه: العدل من الدين وفيه صلاح السلطان وقوة الخاص والعام وفيه يكون خير الرعية وأمنهم وعافيتهم وكل الأعمال توزن بميزان العدل

قال الله تعالى: (والسماء رفعها ووضع الميزان)، يعني به المولى عز وجل العدل

وأحق الناس بالجاه والمملكة من كان في قلبه مكان للعدل، وبيته مقر ذوي الدين والفضل، ورأيه صادر من أرباب الدين والعقل، وصحبته مع النوابغ العقلاء، ومشورته مع ذوي الآراء

قال الشاعر:

يـــده خزانة جـــوده ... والقـــلب خـــازن قصـــده
قـــد رتــــبت أبـــوابه ... أبــــدا لطــــالب عــدله

قار الحسن البصري - رحمه الله -: كل ملك عظم أمر الدين كان عند رعيته مهيبا عظيم القدر والأمر، ومن عرف الله تعالى تعرف الخلق به واختاروا أن يكونوا معارفه

قال الشاعر قاطعا:

مـــن عـــرف الله تعـــالى اسمه ... آثـــر كـــل الخلق عرفـــانه
طـــوبى لـــمن أول ما حـــازه ... معـــرفة الخـــالق سبـــحانه

قال بزرجمهر: ينبغي للملك أن لا يكون في مملكته أقل من البستاني في حفظ بستانه، إذا زرع الريحان ونبت بينه الحشيش استعجل في قلع الحشيش كيلا يضبط أماكن الريحان

قال أفلاطون: علامة السلطان المظفر على العدو أن يكون قويا في نفسه، لازما لصمته، مفكرا في رأيه وتدبيره بقلبه، وأن يكون عاقلا في ملكه، شريفا في نفسه، حلوا في قلوب الرعية، رفيقا في سائر أعماله، مجربا لعهد من تقدمه، خبيرا بأعمال من هو أقدم منه صلبا في دينه وعزمه

وكل ملك تجمعت فيه هذه الخلال، وحصلت له هذه الخصال، كان في عين عدوه مهيبا، ولا يجد العائب له معيبا، إذا كان الملك يرى أن حوله وقوته بالله جلت قدرته وإن كان عدوه قويا فإنه يظفر به وينتصر عليه

قال سقراط: علامة السلطان الذي يدوم ملكه أن يكون الدين والعقل منه حبين في قلبه ليكون في قلوب الرعية محبوبا، وأن يكون العقل قريبا، وأن يكون طالبا للعلم ليعلم من العلماء، وأن يكون فضله غزيرا وبيته كبيرا ليعظم عند الفضلاء، ويربي الأدباء ليتفرغ عنه الأدباء، وأن يبعد عن مملكته متطلبي العيوب لتبعد عنه العيوب

وكل ملك لم يكن له مثل هذه الخصال لا يفرح بمملكته، وتسرع إليه دواعي هلكته، ويتلف أقرباؤه على يده وجلساؤه، لأن القيل يظهر من عدم العقل

وفي ذاك يقول الشاعر:

يقــول الحكيم المقال الأســد ... دع المزاح إذ لست فـيه أســد
تحفــظ بنفســك مــع مفلتيـ ... ك فعينك للــملك تجني الحـــرد
وخــف أن تنـــازعه مــلكه ... وفـــي حالة الســخط عنه ابتعد
فتقتـــل عـــن سخطـــه لا لـــجرم ... ضـــياعا وليس عليه قـــود
سمـــعت عـــن الخـمر أن المـــليك ... يســكر منها قبيل الأمـــد

سأل معاوية الأحنف بن قيس فقال: يا أبا يحيى كيف الزمان؟ فقال: الزمان أنت، إن صلحت صلح الزمان وإن فسدت فسد الزمان

وقال الأحنف بن قيس: إن الدنيا عمرت بالعدل فكذلك تخرب بالجور، لأن العدل يصفو نوره وتلوح تباشيره من مسيرة ألف فرسخ، كذلك الجور يتراكم ظلامه ويسود قتامه من مسيرة ألف فرسخ

قال الفضيل بن عياض: لو كان دعائي مستجابا لم أدع به لغير السلطان العادل، لأن السلطان العادل صلاح العباد، وزينة البلاد، وقد جاء في الخبر، عن سيد البشر صلوات الله وسلامه عليه: < المقسطون على منابر اللؤلؤ يوم القيامة >

جلالتك

إن من واجبات السلطان العدل والنظر غاية النظر فيما يأمر به من السياسة، لينفذ ذلك في أصحابه مثل وزيره وحاجبه ونائبه وعامله، لأن كثيرا من سياسة السلطان وعدله ونظره وحسن تأمله يغطى عليه بالبراطيل (برطيل، رشوة) ويغرب وقته، وذلك من تغافل الملك وتهاونه، فينبغي لسلطان أن يجتهد غاية الاجتهاد في تدارك ذلك

جاء فيما جاد به التاريخ أنه كان للملك كستاشب وزير اسمه راشت روش، وبهذا الاسم كان يظن الملك كستاشب أنه تقي صالح، وما كان يسمع فيه كلام أحد يقدح فيه، ولم يكن يخبر حاله، حتى بانت خيانة الوزير، وطفح إلى السطح فعله المشين، وجار على الرعية بلا رادع ولا ضمير، فلجأ الناس لرشوة الوزير تجنبا لطغيانه الفادح، وهربا من زند ظلمه القادح، حتى ضعفت الرعية وضاقت بها الأحوال، وخلت الخزائن من المال، فظهر لكستاشب عدو فاعتبر خزائنه فلم يجد فيها ما يصلح به أمور عسكره، فبما علم ضرب الملك المعظم مثلا تتناقله الألسن للآن: من اغتر بالاسم من ذوي الفساد، بقي بغير زاد، ومن خان الزاد بقي بلا روح. ثم أمر بصلب الوزير

وهذه الحادثة المشهورة مكتوبة في كتاب بادركارنامه

وببيان ذلك جاد الشاعر بالقول:

ومـــا أنا بالمـــغتر باسمك إنما ... تسمـــيت كـــي تحتال في طلب الرزق
ومن يجعل الأسماء فخا لرزقه ... يعد غير ذي روح على الجذع مستلقي

يقال إنه كان لعمرو بن ليث نسيبا يعرف بأبي جعفر بن زيدويه، وكان عمر به حفيا، ومن جملة محبته له أنه كان يصله من هراة في كل سنة مائة جمل حمر الوبر على كل جمل حمل من الحوائج، فأنفذ عمرو من كل حاجة حملا إلى دار أبي جعفر بن زيدويه وقال: ليوسع عليه في مطبخه، فقيل لعمرو بن ليث إن أبا جعفر قد بطح غلاما له، وقد ضربه عشرين خشبة، فأمر أن يحضر ثم أمر بكل سيف في خزائنه فقال: يا أبا جعفر اختر من هذه السيوف أجودها واعزله ناحية! فجعل أبو جعفر يتخير وينتقي إلى أن أفرد منها مائة سيف، فقال: اختر الآن منها سيفين! فاختار أبو جعفر منها سيفين أجودها، فقال عمرو: ارسم الآن أن يجعلا في قراب واحد! فقال أبو جعفر: أيها الأمير كيف يمكن أن يكون سيفان في قراب واحد؟ فقال بن ليث: فكيف يمكن أن يكون أميران في بلد واحد!؟ فعلم أبو جعفر أنه أخطأ، فقبل الأرض والتمس العفو والإقالة، فقال عمرو: لولا حق القرابة ما جئت بيتك فخل عن هذا الأمر لنا فقد عفونا هذه النوبة عنك

قال أردشير: إذا كان الملك عاجزا عن إصلاح خواصه ومنعهم عن الظلم فكيف يقدر على رد العوام إلى الصلاح؟

وفي هذا يقول الولى عز وجل: (وأنذر عشيرتك الأقربين)

العرب تقول إنه ليس شيء أضيع للملك وأفسد للرعية من تعذر الإذن في الدخول وتكاثر الحجاب، وصعوبة الحجابة

وإذا كان الملك سهل الحجاب لم يكن له للعمال أن يجوروا على الرعايا وخافت الرعية من جور بعضهم على بعض، ومن سهولة الحجاب يكون للملك على سائر العمال اطلاع

ولا يجوز لسلطان أن يكون غافلا لتكون الهيبة من ناموس المملكة باقية، ويستريح من الهموم الحادثة عن الغفلة

يقال أن أزدشير كان متيقظا ذا فطنة بالأمور، بحيث إذا جاءه ندماؤه من الغد حدث كل واحد منهم بما صنعه، وكان يقول لأحدهم: إنك البارحة فعلت من الشيء الفلاني كذا ونمت مع زوجتك ومع جاريتك الفلانية

ومهما كان يجري لندمائه يحدثهم به من الغد، بحيث إنهم كانوا يقولون ويظنون أن ملكا من السماء يأتي ويعرفه بأفعالهم

وكذلك كان السلطان العظيم يمين الدولة حارس الملة قاهر سومونات الهند (صنم الهند الأعظم) محمود بن سبكتكين رحمه الله

قال أرسطو: خير الملوك من كان في حدة نظرة على مثال العقاب، وكان الذين حوله كعقبان لا كالجيف

يعني إذا كان السلطان جيد النظر ذا يقظة بالأمور، ذا فكرة في العاقبة، وكان المقربون منه وخواص دولته بهذه الصفة، انتظمت أحوال مملكته واستقامت أمور ولايته

قال الإسكندر: خير الملوك من بدل السنة السيئة بالسنة الحسنة، وشر الملوك من بدل السنة الحسنة بالسنة السيئة

قال أبرويز: ثلاثة لا يجوز للملك التجاوز عنهم ولا يصفح عن ذنوبهم: من قدح في ملكه، أو أفسد حرمه، أو أفشى سره

قال سفيان الثوري: خير الملوك من جالس أهل العلم

ويقال إن جميع الأشياء تتجمل بالناس، والناس يتجملون بالعلم وتعلو أقدارهم بالعقل، وليس شيء خيرا من العقل والعلم، فإن العلم بقاء العز ودوامه، والعقل بقاء السرور ونظامه

ومن اجتمع العلم والعقل فيه فقد اجتمعت فيه اثنا عشرة خصلة:

العفة، الأدب، التقى، الأمانة، الصحة، الحياء، الرحمة، حسن الخلق، الوفاء، الصبر، الحلم، والمداراة في مكانها، وهذه من خواص آداب الملك

وينبغي أن يكون مع العقل العلم كما أن مع النعمة الشكر، ومع الصباحة الحلاوة، ومع الاجتهاد الدولة، فإذا جاءت الدولة حصل المراد جميعه

قال عبد الله بن طاهر: إن يعقوب بن ليث علا أمره وارتفع قدره، وظهر اسمه وذكره، وملك كرمان وفارس وخوزستان وقصر الواق، وكان المعتمد خليفة ذلك الزمان فكتب إليه: إنك كنت رجلا صفارا (صانع النحاس الأصفر) فمن أين تعلمت تدبير الملك؟

فكتب إليه يعقوب جوابا وقال: إن المولى الذي آتاني الدولة آتاني التدبير

جلالتك والدولة الصفارية نسبتا له

وفي عهد أردشير المعروف بأمير نامه مكتوب: كل عزيز لا يضع قدمه على بساط العلم كانت عاقبته ذلا، وكل عبد ليس معه خوف من الله تعالى وإن كان تاما فإن مصيره إلى الندم

قال عبد الله بن طاهر يوما لأبيه: كم تبقى هذه الدولة فينا وتبقى في بيتنا؟ قال: ما دام بساط العدل والإنصاف مبسوطا في هذا الإيوان

يجب على الملوك العقلاء، والأفاضل الألباء أن ينظروا في هذه الأخبار ليأخذوا نصيبا من أيام دولتهم، وينصفوا المظلومين ويقضوا حوائج السائلين، ويتيقنوا أن هذا الفك لا يثبت على دور واحد، لأنه لا اعتماد على الدولة، وأن القضاء سماوي لا برد بالعساكر وكثرة الأموال والذخائر، وإذا انحلت الدولة وتلاشت الأموال، وتفانت الرجال، فلا ينفع الندم إذا زلت القدم

قيل أن مروان بن محمد الحمار (نسبة لتربيته الحمير) آخر خلفاء بني أمية عرض العسكر، فكان ثلاثمائة ألف بالعدد الكاملة، فقال وزيره: إن هذا لمن أعظم الجيوش. فقال له الخليفة: أسكت! فإنه إذا انقضت المدة لم تنفع العدة، وإذا نزل القضاء السماوي وإن كان العسكر عظيما كثيرا بان قليلا حقيرا، ولو ملكنا هذه الدنيا بأسرها فلابد أن تنزع منا، ولمن وفت الدنيا حتى تفي لنا!

قال أبو الحسن الأهوازي (الأحوازي) في كتاب "الفرائد والقلائد": الدنيا لا تصفو لشارب، ولا تبقي لصاحب، فخذ زادا من يومك لغدك، فلا يبقي يوم عليك ولا غد

ويقال إنه كان مكتوبا على شاهد قبر يعقوب بن ليث هذه الأبيات، عملها قبل موته وأمر أن تكتب على قبره:

سلام على أهل القبور الدوارس ... كأنهم لم يجلسوا في المجالس
ولم يشربوا من بارد الماء شربة ... ولم يأكلوا ما بين رطب ويابس
فقد جاءني الموت المهول بسكرة ... فلم تغن عني ألف آلاف فارس
فيا زائر القبر اتعظ واعتبر بنا ... ولا تك في الدنيا هديت بآنس
خراسان نحويها وأطراف فارس ... وما كنت عن ملك العراق بآيس
سلام على الدنيا وطيب نعيمها ... كأن لم يكن يعقوب فيها بجالس

سئل ملك كان قد زال عنه الملك فقيل: لأي سبب انتقلت الدولة عنك وسلمت إلى غيرك وسلبت منك؟ فقال:

لاغتراري بالدولة والقوة، ورضاي برأيي وعملي، وغفلتي عن المشورة، وتوليتي لأصاغر العمال على أكابر الأعمال، وتضييعي الحيلة في وقتها، وقلة تفكيري في الحيلة وإعمالها وقت الحاجة إليها، والتباطؤ والوقفة في مكان العجلة، والفرصة والاشتغال عن قضاء الحوائج

قيل: أي الأشرار أكثر شرا؟ فقال:

الرسل الخونة الذين يخونون في الرسالة لأجل أطماعهم، فكل خراب المملكة منهم، كما قال أردشير في حقهم:

كم سفكوا من الدماء وكم هزموا من الجيوش، وكم هتكوا من أستار ذوي الحرمات الأحرار، وكم من يمين كذبوها بخيانتهم، وكم من عهود نقضوها بقلة أمانتهم، وكم اجتاحوا من الأموال

وكان ملوك العجم يتحرزون ويتحفظون وما كانوا ينفذون رسولا إلا بعد أن يجربوه ويمتحنوه، جاء أيضا أنهم كانوا إذا أرسلوا رسولا إلى الملوك أرسلوا معه جاسوسا ليكتب جميع ما قاله وما سمعه، فإذا عاد الرسول قابل كلامه بالنسخة التي كتبها الجاسوس، فإن صح مقاله علموا أنه صادق فكانوا يرسلونه بعد ذلك للأعداء، أي أقروه على أمانته وانتجبوه لصدقه

ومسألة انتجاب الرسل والوفود للأعداء لم تقتصر فقط على الملوك ولم تكن من خاصة أعمالهم، جاء في كتب التاريخ عن فتوح بلاد فارس والصين ما فيه جلاء للغمة وتليقين للأمة فأنظر...

سموك

جاء في الأثر أن رستم أرسل يطلب من المسلمين وفدا للحديث معه وذلك لرغبته في الصلح، بنية رد المسلمين دون الدخول في حرب معهم

فلينظر جلالته ولتبصر نفسه لعزة نفس الأجداد القادة الملوك والرسل المفوهين كيف كانت روحهم وهممهم وكيف يجب أن تكون طينة الملوك الحقة وهم دون الخلائق أحق بهذه النفس والروح...!

ربعي بن عامر يخاطب رستم:

يخبر زهرة بن الحُوِيَّة سعد بن أبي وقاص بذلك (طلب رستم)، فيجمع سعد بن أبي وقاص مجلس حربه، ويقول لهم: إنني سأرسل له وفدًا عظيمًا من أصحاب الرأي، كما أرسلت من قبل ليزدجرد؛ ليقيم عليه الحُجَّة، ويدعوه إلى الإسلام

فيقول ربعي بن عامر: إن هؤلاء القوم قوم تباهٍ، وإننا لو فعلنا ذلك يرون أننا قد اعتددنا بهم (بمعني: جعلنا لهم مكانة عظيمة، وأقمنا لهم الهيبة ويفهمون بأننا خائفون منهم)، ولكني أرى أن ترسل لهم واحدًا فقط؛ فيشعروا أننا غيرُ مهتمين بهم؛ فيوهن ذلك في قلوبهم. فتجادل معه القوم، ولكنه ظل يجادلهم

حتى قال سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه): ومن نرسل؟

فقال ربعي: سَرِّحوني، وما إن وافق سعد وافق بقية القوم، ووقع في قلوبهم الرضا، وذهب ربعي بن عامر ليقابل رستم

وربعي هذا لم يكن من قواد الجيوش الإسلامية، ولكنه سيد في قومه، وانطلق ربعي على فرسه الصغير ذي الذيل القصير، وهذا شيء تُهَانُ به الخيولُ، ويلبس ثيابًا بسيطة جدًا، وهذا لباسه منذ أن قدم للقتال؛ فذهب به لمقابلة رستم، ويربط سيفه في وسطه بشيء غنمه من الفُرْسِ

وبالطبع فإن الفرس يعرفون شكل لباسهم (وفي هذا إذلال لهم كأن به يقول: ما كان في أيديكم بالأمس أصبح اليوم في يدي، وهذا أمر يؤثر في أنفسهم كثيرًا)، ويحمل فوق ظهره السهام، وله جحفة من جريد النخل مثل التُّرس يتقي بها السهام، وكانت دروع الفُرس من الحديد القوي، وكان يلبس من الدروع درعًا حديدية تغطي نصفه الأعلى، وكان من أطول العرب شعرًا وقد ضفَّره في أربع ضفائر، فكانت كقرون الوعل، ودخل عليهم بهذا المنظر غير المعتاد بالنسبة لهم؛ فدخل بفرسه ووقف على باب خيمة رستم، فطلب منه القوم أن ينزع سلاحه

فقال: لا، أنتم دعوتموني، فإن أردتم أن آتيكم كما أُحِبُّ، وإلا رَجعتُ

فأخبروا رستم بذلك، فقال: ائذنوا له بالدخول

فدخل بفرسه على البُسُطِ الممتدة أمامه، وهي طويلة جدًّا، يتراوح طولها ما بين مائة وخمسة وستين مترًا إلى مائة وخمسة وثمانين مترًا، وعندما دخل بفرسه وجد الوسائد المُوَشَّاة بالذهب؛ فقطع إحداها، ومرر لجام فرسه فيها وربطه به، وهذا يُوحِي بأن هذه الأشياء ليست بذات قيمة عنده، وفي هذا أيضًا إذلال للفرس، ثم أخذ رمحه، واتجه صوب رستم وهو يتكئ عليه، والرمح يدب في البسط فيقطعها، ولم يترك بساطًا في طريقه إلا قطعه، ووقف أهل فارس في صمت، وكذلك رستم، وبينما هم يفكرون ثم جلس على الأرض، ووضع رمحه أمامه يتكئ عليه

وبدأ رستم بالكلام، فقال له: ما دعاك لهذا؟

فقال له: إنا لا نستحب أن نجلس على زينتكم

فقال له رستم: ما جاء بكم؟

فقال له: لقد ابتعثنا اللهُ لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، فمن قَبِلَ ذلك منا قبلنا منه، وإن لم يقبل قبلنا منه الجزية، وإن رفض قاتلناه حتى نظفر بالنصر

فقال له رستم: قد تموتون قبل ذلك

فقال: وعدنا الله أن الجنة لمن مات منا على ذلك، وأن الظفر لمن بقي منا

فقال له رستم: قد سمعت مقالتك، فهل لك أن تؤجلنا حتى نأخذ الرأي مع قادتنا وأهلنا؟

فقال له: نعم، أعطيك كم تحب: يومًا أو يومين؟ بمعني: سنعطيك فرصة

فقال له رستم: لا، ولكن أعطني أكثر، إنني أخاطب قومي في المدائن

فقال: إن رسول الله قد سنَّ لنا أن لا نمكن آذاننا من الأعداء، وألا نؤخرهم عند اللقاء أكثر من ثلاث (ثلاثة أيام فقط حتى لا يتمكنوا منا ويتداركوا أمرهم)، فإني أعطيك ثلاثة أيام بعدها؛ اختر الإسلام ونرجع عنك أو الجزية، وإن كنت لنصرنا محتاجًا نصرناك، وإن كنت عن نصرنا غنيًّا رجعنا عنك، أو المنابذة في اليوم الرابع، وأنا كفيل لك عن قومي أن لا نبدأك بالقتال إلا في اليوم الرابع، إلا إذا بدأتنا

فقال له رستم: أسيِّدُهم أنت؟

فقال له: لا، بل أنا رجل من الجيش، ولكنَّ أدنانا يجير على أعلانا

فهو يقصد أن أقل رجل منا إذا قال كلمة، أو وعد وعدًا لا بُدَّ وأن ينفذه أعلانا

جلالة الملك المعظم

هكذا قال له ربعي بن عامر، ثم تركه وانصرف

وعاد رستم يُكَلِّم حاشيته مرة أخرى، ويقول لهم: أرأيتم من مَنطِقِهِ؟! أرأيتم من قوته؟! أرأيتم من ثقته؟! يخاطب قومه ليستميلهم إلى عقد صلح مع المسلمين؛ وبذلك يتجنب الدخول معهم في حرب، ولكنهم رفضوا ولجُّوا

وقالوا له: إنك تجبن وما إلى ذلك، ولكنه لم ييأس لذا نراه يحاول مرة أخرى

سموك المفدي

ثم كان منطق المغيرة بن شعبة (رضي الله عنه)

المغيرة بن شعبة يخاطب رستم:

في اليوم الثالث يطلب رستم رجلاً آخر يتحدث معه، فيرسل له سيدنا سعد بن أبي وقاص سيدنا المغيرة بن شعبة. ونعلم أن سيدنا المغيرة يعرف الفارسية، ولكنه لم يخبرهم بذلك، وجعل المترجم يمشي بينهم حتى يسمع ما يقولون، وينقل هذا الكلام إلى المسلمين بعد ذلك، فدخل عليه المغيرة بن شعبة

ظنوا أنه لم يكن مثله وظل يمشي حتى وصل إلي رستم، فجلس بجانبه على السرير المُذَهَّب، فصرخوا في وجهه إذ الفُرْسُ جميعهم يقفون بعيدًا جدًّا عن رستم، وهذا يجلس بجانبه!

فقال لهم: أنتم دعوتموني، فإن أردتم أن آتيكم كما أحب، وإلا رجعت

فقال لهم رستم: صدق. وتركه

فقال لهم المغيرة بن شعبة:

واللهِ جلوسي جنب أميركم لم يزدني شرف، ولم ينقصه شيء، والله يا أهل فارس إنَّا كانت تبلغنا عنكم الأحلام (أي: نسمع عنكم أنكم عقلاء)، ولكني أراكم أسفهَ قوم، وكان أجدرَ بكم أن تقولوا لنا إنما يعبد بعضكم بعضًا (بمعني: هذا ما كان يجب أن يبلغنا عنكم)، ولكننا نتواسى ولا تتواسوا، واللهِ الآن أدركتُ أن أمركم مضمحلٌّ، وأن أمر الغَلَبَة والملك لا يقوم على مثل ما أنتم عليه

فسمع الحاشية من خلفه وهي تقول: واللهِ صَدَقَ العربي

ثم أخذ الرؤساء يحدث بعضهم بعضًا يقولون: ما أحمقَ أَوَّلِينا (أي جدودنا) عندما كانوا يُصَغِّرُون أمر هذه الأمة!!

فأراد رستم أن يخفف من تأثير أفعال الحاشية مع المغيرة حتى لا يغضب

فقال له: يا عربي، إن الحاشية قد تفعل شيئًا لا يرضى عنه الملك، ولكنه يتجاوز حتى لا يكسر حاشيته

ثم بدأ رستم يسخر من سلاحه

فقال له: يا هذا، ما هذه المغازل التي تحملها؟ يقصد سهامه القصيرة التي تشبه مغازل الصوف في نظره، وكانت سهام الفرس طويلة جدًّا تعرف بالنشاب

فقال له المغيرة بن شعبة: ما ضَرَّ الجمرةَ أن لا تكون طويلة. أي أن كرة النار لا يضرها صغرُها، فإذا ألقيت على شخص قتلته وحققت الهدف منه، فليس بالضرورة أن تكون طويلة؛ ورماهم كما رماهم من قبلُ حُذَيفة، فأحضروا له درعًا من دروعهم، فرماه بسهم من سهامه التي يقولون عنها مغازل، فاخترقه ولم تخترق سهامهم جحفته؛ فهَزَّ ذلك رستم، ثم حاول أن يتماسك

فقال له: ما بالي أرى سيفك رَثًّا؟ أي مظهره قديم وضعيف

فقال له: رَثُّ الكسوة، ولكنه حديد الضربة

ثم قال له رستم: تتكلم أو أتكلم؟

فقال له: أنت دعوتني فتكلَّمْ

فتكلم رستم قائلاً:

لم نزلْ متمكنين في الأرض، وظاهرين على الأعداء؛ نُنصر ولا يُنصر علينا إلا اليوم واليومين، والشهر والشهرين؛ لِلذُّنوب، فإذا رضي الله عنا رَدَّ لنا بأسنا وجَاهَنَا، ومَلَّكنا على من ناوأنا، أما أنتم فأهل قَشْفٍ، ومعيشةِ سوءٍ وجَهدٍ وشقاء، لا نراكم شيئًا ولا نَعُدُّكم، وكانت إذا قحطت أرضكم أتيتمونا، فحملناكم وِقْرًا من تمر أو قمح، فرَضِيتم ورجعتم

ثم أخذ يشبه المسلمين وقوم فارس بقوله: وإنما مَثُلُكم كرجل له حائط (أي: بستان)، فدخل فيه ثعلب من خرم أو ثقب في سور الحائط، فأخذ يأكل من الكَرْمِ، فنظر الرجل إلى الثعلب

فقال: وما ثعلب؟ فأكل، ثم بدأ يعيث في الحديقة فسادًا: يأكل من هذا، ويفسد في هذا؛ فغضب الرجل وطلب منه أن يخرج، فأَبَى الثعلب، فنادى الرجل على غلمانه فتتبعوه، فعندما أدرك الثعلب أنهم طالبوه وغير تاركيه، رجع إلى الثقب فدخل فيه حتى يخرج، ولكنه كان قد سمُن فانحشر في الثقب، فأتاه الغلمان على هذه الحالة، فظلوا يضربونه حتى قتلوه

فانظروا كيف تخرجون؟ وإني لأرى أن ما جاء بكم إلا الجَهْد، فعودوا أدراجكم ونحن نُوقِرُ لكم ركائبكم قمحًا وتمرًا، وأنا آمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم، وكل رجل منكم له وِقْر من تمر وقمح وثوبين، وتعودون إلى أرضكم، فإني لا أشتهي قتلكم، فارجعوا عافاكم الله

فقال المغيرة: الحمد والشكر لله رب العالمين، إن الله خالق كل شيء، ورازق كل شيء، وصانع كل شيء...

فأما ما ذكرت به نفسك وأهل بلادك من الغلبة، ومن الظهور على الأعداء، ومن التمكُّن في البلاد فنحن نعرف ذلك ولا ننكره، ولكننا نعلم أن الله قد صنعه بكم، وأما الذي ذكرت من سوء حالنا، ومن قلة زادنا، ومن ضيق عيشنا، ومن اختلاف قلوبنا، فنحن نعرفه أيضًا ولا ننكره، كنا في مثله أو أشد منه: كان أفضلنا من يقتل ابن عمه، ويأكل ماله، وكنا نأكل الميتة والدَّم والعظام، وغير ذلك من سوء العيش، ولكن الدنيا دُوَل (فالحياة تتغير دائمًا)

وما زال أهل شدائدها ينتظرون الرخاء حتى يصيروا إليه، وما زال أهل الرخاء ينتظرون الشدائد حتى تنزل بهم، ولكن أسلمكم ضعفُ الشكر إلى تغير الحال

ثم قال له: إن الله تعالى بعث فينا رسولاً، وأنزل فينا كتابه، فدعانا إلى الله وإلى ما بعثه به، فصدقه منا مُصدِّق، وكذَّب به آخر، فقاتل من صدَّقه من كذَّبه، حتى كانت لهم الغلبة واجتمعت العرب كلهم معه، وكانوا من اختلاف الرأي مما لا يطيق الخلائق تأليفهم، فعرفنا أنه الحق ثم أمرنا أن ننابذ من خالفه ممن يلينا

فنحن ندعوكم إلى واحدة من ثلاث: إما الإسلام ونرجع عنك ونتركك، ونخلف فيك كتاب الله، وإما الجزية عن يدٍ وأنت صاغر، وإن أبيت فالسيف

فقال له رستم: وما صاغر؟

فقال له: أن يقوم أحدكم على رأس أميرنا فيطلب منه أن يأخذ الجزية، فيحمده إن قبلها، فكن يا رستم عبدًا لنا تعطينا الجزية، نكف عنك ونمنعك

وعندما قال له: كن عبدًا لنا . قام رستم واستشاط غضبًا، واحمرَّت عيناه وبدأ يزبد ويخرج عن أصول الحديث بين رؤساء الدول والسفراء

فقال له: واللهِ ماكنت أظن أني أعيش حتى أسمع هذا الكلام منكم. ثم حلف بالشمس ألا يرتفع الصباح حتى يدفنهم في القادسية

ثم قال له: ارجع إلى قومك، لا شيء لكم عندي، وغدًا أدفنكم في القادسية

فرجع المغيرة وأثناء مروره على القنطرة أرسل رستم رجلاً يناديه، فناداه، فنظر إليه

فقال له: مُنَجِّمُنا يقول: إنك تُفقأ عينُك غدًا . وذلك ليخوفه

فتبسَّم المغيرة بن شعبة وقال: واللهِ لولا أني أحتاج الأخرى لقتال أشباهكم، لتمنيت أن تذهب الأخرى في سبيل الله

فعاد الرجل يخبر رستم بذلك، وهو في ذلك الوقت يتحدث مع حاشيته ويقول لهم: أرأيتم من اجتماع كلمتهم؟! والله إن هؤلاء إن كانوا صادقين ما قامت لغيرهم قائمة، ولم يستطع أحد أن يحاربهم... لأنهم يتفقون على رأي واحد وكلمة واحدة

وفي أثناء ذلك قَدِمَ الرجل الذي أرسله إلى المغيرة، وأخبره بما قال

فقال لهم: أرأيتم؟! أي: هل أدركتم ما أريد؛ فغضب القوم منه وأخذوا يجادلونه حتى أغضبهم وأغضبوه

ثم بات ليلته يفكر في الأمر، فالمهلة قد أوشكت على الانتهاء، ودخل اليوم الثالث فنام رستم في هذه الليلة، ورأى الرؤيا نفسها مرة أخرى... فاستيقظ فزعًا ونادى على خاصته

وقال: واللهِ يا أهل فارس إن الله يعظنا، وإني أراكم تُلْقُون بنا إلى التهلكة. فجادلوه في ذلك، وأخذوا يحفزونه على القتال، حتى وجد أنه لا بُدَّ له من القتال

ويعلم صاحب المقام العالي

أن في القادسية كانت الغلبة لأمة الإسلام، وفيها علت كلمة التوحيد على عباد النار

أيها الملك المعظم

قد يقول قائل وينطق حاسد مبغض، وربما يتحدث سفيه جاهل بتاريخ أسلافه وعزت نفوسهم وسلاسة منطقهم بما لا يعلم فيقول: إن الذي كان من حديث رستم كان بين كافر وجيش من الصحابة والتابعين والأولين السابقين المرضين والمباركين بكونهم في كنف خلافة راشدة عادلة

ولا يمكن أن يكون هذا المنطق -حجة المتحدث- سليم فكيف يفسر لنا ما سنعرض من أصول إنتجاب الرسل والسفراء للأعداء

وجاء في كتب الأثر:

دخلت سنة ست وتسعين وفيها فتح قتيبة بن مسلم (رحمه الله تعالى) كاشغر من أرض الصين، وبعث إلى ملك الصين رسلا يتهدده ويتوعده، ويقسم بالله ألا يرجع حتى يطأ بلاده، ويختم ملوكهم وأشرافهم، ويأخذ الجزية منهم، أو يدخلوا في الإسلام

فدخل الرسل على الملك الأعظم فيها وهو في مدينة عظيمة يقال: إن عليها تسعين بابا في سورها المحيط بها يقال لها: خان بالق

من أعظم المدن، وأكثرها ريعا، ومعاملات وأموالا

حتى قيل: إن بلاد الهند مع اتساعها كالشامة في ملك الصين

والصين لا يحتاجون إلى أن يسافروا في ملك غيرهم، لكثرة أموالهم ومتاعهم، وغيرهم محتاج إليهم، لما عندهم من المتاع والدنيا المتسعة، وسائر ملوك تلك البلاد تؤدي إلى ملك الصين الخراج لقهره وكثرة جنده وعدده

والمقصود أن الرسل لما دخلوا على ملك الصين وجدوا مملكة عظيمة، وجندا كثيرا، ومدينة حصينة ذات أنهار وأسواق، وحسن وبهاء، فدخلوا عليه في قلعة عظيمة حصينة، بقدر مدينة كبيرة

فقال لهم ملك الصين: ما أنتم؟!! وكانوا ثلاثمائة رسول عليهم هبيرة

فقال الملك لترجمانه: قل لهم: ما أنتم وما تريدون؟!!

فقالوا: نحن رسل قتيبة بن مسلم، وهو يدعوك إلى الإسلام، فإن لم تفعل فالجزية، فإن لم تفعل فالحرب

فغضب الملك، وأمر بهم إلى دار، فلما كان الغد دعاهم فقال لهم: كيف تكونون في عبادة إلهكم؟!!

فصلوا الصلاة على عادتهم، فلما ركعوا وسجدوا ضحك منهم

فقال: كيف تكونون في بيوتكم؟!!

فلبسوا ثياب مهنهم (ثياب بسيطة عادية)، فأمرهم بالانصراف

فلما كان من الغد أرسل إليهم، فقال: كيف تدخلون على ملوككم؟!!

فلبسوا الوشي والعمائم والمطارف، ودخلوا على الملك

فقال لهم: ارجعوا. فرجعوا فقال الملك لأصحابه: كيف رأيتم هؤلاء؟!!

فقالوا: هذه أشبه بهيئة الرجال من تلك المرة الأولى، وهم أولئك

فلما كان اليوم الثالث، أرسل إليهم، فقال لهم: كيف تلقون عدوكم؟!!

فشدوا عليهم سلاحهم ولبسوا المغافر والبيض، وتقلدوا السيوف، وتنكبوا القسي، وأخذوا الرماح، وركبوا خيولهم ومضوا

فنظر إليهم ملك الصين فرأى أمثال الجبال مقبلة، فلما قربوا منه ركزوا رماحهم، ثم أقبلوا نحوه مشمرين

فقيل لهم: ارجعوا وذلك لما دخل قلوب أهل الصين من الخوف منهم فانصرفوا فركبوا خيولهم، واختلجوا رماحهم، ثم ساقوا خيولهم، كأنهم يتطاردون بها (يتسابقون)

فقال الملك لأصحابه: كيف ترونهم؟!!

فقالوا: ما رأينا مثل هؤلاء قط

فلما أمسوا بعث إليهم الملك، أن ابعثوا إلى زعيمكم وأفضلكم. فبعثوا إليه هبيرة

فقال له الملك حين دخل عليه: قد رأيتم عظم ملكي، وليس أحد يمنعكم مني وأنتم بمنزلة البيضة في كفي، وأنا سائلك عن أمر فإن لم تصدقني قتلتك

فقال: سل

فقال الملك: لم صنعتم ما صنعتم من زي أول يوم والثاني والثالث؟!!

فقال: أما زينا أول يوم فهو لباسنا في أهلنا ونسائنا، وطيبنا عندهم، وأما ما فعلنا ثاني يوم فهو زينا إذا دخلنا على ملوكنا، وأما زينا ثالث يوم فهو إذا لقينا عدونا

فقال الملك: ما أحسن ما دبرتم دهركم!! انصرفوا إلى صاحبكم يعني قتيبة وقولوا له: ينصرف راجعا عن بلادي، فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت إليكم من يهلككم عن آخركم

فقال له هبيرة: تقول لقتيبة هذا؟!! فكيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟!! وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها، وغزاك في بلادك؟!! وأما تخويفك إيانا بالقتل فإنا نعلم أن لنا أجلا إذا حضر، فأكرمها عندنا القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه

فقال الملك: فما الذي يرضي صاحبكم؟!!

فقال: قد حلف أنه لا ينصرف حتى يطأ أرضك، ويختم ملوكك، ويجبي الجزية من بلادك

فقال الملك: أنا أبر يمينه وأخرجه منها، أرسل إليه بتراب من أرضي، وأربع غلمان من أبناء الملوك، وأرسل إليه ذهبا كثيرا، وحريرا وثيابا صينية لا تقوم ولا يدري أحد قدرها (أي: أنها باهظة، وهذا قول الملك لا قول الفقير والتاجر)

ثم جرت لهم معه مقاولات كثيرة (حوار طويل، ومفاوضات شاقة)، ثم شرع يتهددهم فتهددوه، ويتوعدهم فتوعدوه، ثم اتفق الحال على أن بعث صحافا من ذهب متسعة، فيها تراب من أرضه ليطأه قتيبة (قائد الجيش المظفر يومها)، وبعث بجماعة من أولاده وأولاد الملوك ليختم رقابهم، وبعث بمال جزيل ليبر بيمين قتيبة

وقيل: إنه بعث أربعمائة من أولاده وأولاد الملوك

سموك المعظم

فلما انتهى إلى قتيبة ما أرسله ملك الصين قبل ذلك منه، وذلك لأنه كان قد انتهى إليه خبر موت الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين وخليفة دولة بني أمية

وجاء أيضا أن الإسكندر انتجب رسولا لملك الهند دارا بن دارا، فشك الإسكندر في قول رسوله فسعي لاستيضاح الحقيقة وتبين له صحة شكه، وخيانة الرسول لحاكمه الإسكندر فأمر بالرسول فقلع لسانه من قفاه

الفصل الثالث

حرز السلطان وظلف الأعوان

أيها المعظم

يجب على السلطان أن يدرك أنه متى وقعت رعيته في ضائقة أو حصلت في المصر شدة وفاقة أن يبادر ويهب ليعينهم، ولا سيما في أوقات القحط وغلاء الأسعار حيث تعجز العامة عن التعيش ولا تقدر الناس ضربا في الأرض من أجل التكسب، فينبغي حينئذ للسلطان أن يعينهم بالطعام، ويساعدهم من خزائن الأمة بالمال، ووجب عليه أن يحرز شعبه من حشمه وخدمه وأتباعه لألاء يجوروا على عماد بيضته ويفسدوا عليه رعيته، لئلا يضعف الناس وينتقلوا إلى غير ولايته، ويتحولوا إلى سوى مملكته، فينكسر ارتفاع السلطان، ويقل حاصل الديوان، وتعود المنفعة على ذوي الاحتكار من أهل الإجرام، الذين يسرون بغلاء الأسعار وهم حملوا الحطب في الأزم لنار، وبذا يقبح ذكر الملك في نفوس الناس ويدعى عليه من التافه والخاص، ولأجل ذلك كان الملوك المتقدمون يحذرون من هذا غاية الحذر، ويراعون الرعايا من خاصة خزائنهم، ويساعدونهم من ذخائرهم ودفائن أهليهم

ويقال إنه كان رسم ملوك العجم أن يأذنوا لرعاياهم في الدخول إليهم في أيام النوروز (النيروز) والمهرجان، وكان المنادي ينادي قبل ذلك بثلاثة أيام أن استعدوا لليوم الفلاني ليأخذ كل الناس أهبته، ويصلح أمره ويكشف قصته، ويتيقن حجته، ومن كان له خصم يعلم أنه شاكيه عند الملك طلب رضاه

وكل هذا في حضور الموبذان وهو قاضي القضاة، ومن كان له شكوى ضد الملك فإن الملك والخصم يقعدان في نفس المقام عند القاضي حتى يقضي لأحدهما

قيل إن هذا كان منهجهم حتى جاء يزدجرد الأثيم، فإنه غير قواعد بني ساسان، وظلم الخلق وأفسد، حتى هلك على يد فرس لا يعلم أحد من أين أتت ولا أين ذهبت، فقال الناس: كان هذا الفرس ملكا أرسله الله تعالى ليهلكه ويخلصنا من جوره وظلمه

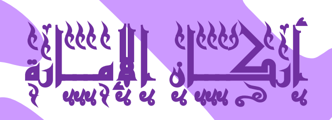
قال القاضي أبو يوسف: حضر عندي في مجلس حكمي يحيى ابن خالد البرمكي مع خصم له مجوسي، فادعى المجوسي عليه، فطلب منه الشاهد، فقال: ما لي شاهد، فحلفه! فحلفت يحيى بن خالد، وأرضيت خصمه بإحلافه، وساويت في الحكم بين يحيى والمجوسي لعزة الإسلام، وما ملت قط مع أحد، ولا حابيت أحدا، خوفا أن يسألني الله تعالي عن ذلك

قيل احذروا دعاء المظلومين، وخافوا من ظلم من لا ينتصر من ظلمه إلا بدمع عينيه، فما دون دعاء المظلوم حجاب، ودعاؤه مستجاب، لا سيما الدعاء على الأشرار في الأسحار، والتضرع في هدوء الليالي إلى الجبار

قال الشاعر:

فـلا تعجلن بالـجور مـا دمت قـادرا ... فـآخره إثـم وخـوف عـذاب
تنـام ومـا المـظلوم عنـك بنـائـم ... ودعـوتـه لا تنثنـي بـحجـاب

الباب الثالث



الفصل الأول

في سياسة الوزراء و سيرة نواب السلطان (الوزراء)

أيها الملك المعظم

اعلم أن السلطان يرتفع ذكره ويعلو قدره بالوزير إذا كان صالحا كافيا عادلا، لأنه لا طاقة لأحد من الملوك أن يصرف زمانه ويدبر سلطانه بغير وزير

ومن انفرد برأيه زل من غير شك، ألا ترى أن النبي [صلى الله عليه وسلم] مع جلالة قدره وعظم درجته وفصاحته أمره الله تعالى بالمشاورة لأصحابه العقلاء العلماء فقال عز من قائل: (وشاورهم في الأمر)

وأخبر في موضع أخر عن موسى عليه السلام فقال: (واجعل لي وزيرا من أهلي . هارون أخي . اشدد به أزري . وأشركه في أمري)

وإذا لم يستغن الأنبياء عليهم السلام عن الوزراء واحتاجوا إليهم كان غيرهم من الناس أحوج

سئل أردشير بن بابك: أي الأصحاب أصلح للملك؟ فقال: الوزير العاقل المتقن الأمين الصالح التدبير، ليدبر معه أمره ويشير إليه بما في نفسه

وعلى السلطان أن يعامل الوزير بثلاثة أشياء:

- إذا ظهرت منه زلة أو وجدت منه هفوة، ألا يعاجله بالعقوبة
- إذا استغنى في خدمته وأينع ظله في دولته، ألا يطمع في ماله وثروته
- إذا سأله حاجة، ألا يتوقف في قضاء حاجته

وينبغي أن لا يمنعه ثلاثة أشياء:

- متى أحب أن يراه، ألا يمنعه من رؤيته
- وأن لا يسمع في حقه كلام مفسد
- وألا يكتم عنه شيئا من سره

لأن الوزير الصالح حافظ سر السلطان، ومدبر أحوال المملكة، وعمارة الولايات والخزائن، وزينة المملكة، وشدة الهيبة والقدرة، وله الكلام على الأعمال واستماع الأجوبة، وبه يكون سرور الملك وقمع أعدائه. وهو أحق الناس بالاستماع له وتفخيم القدر، وتعظيم الأمر

قال لقمان لابنه: أكرم وزيرك، لأنه إذا رآك على أمر لا يجوز أن يوافقك عليه

وينبغي للوزير أن يكون مائلا للخير، متوقيا من الشر، وإذا كان سلطانه حسن الاعتقاد، مشفقا على العباد، كان اه عونا على ذلك وأمره بالازدياد، وإذا كان سلطانه ذا حنق أو كان غير ذي سياسة، كان على الوزير أن يرشده قليلا قليلا بألطف وجه، ويهديه إلى الطريق المحمودة

وينبغي أن يعلم أن دوام الملك بالوزير، وأن دوام الدنيا بالملك، وينبغي أن يعلم أنه لا يجوز له أن يهتم بغير الخير ويعلم أنه إنسان يحتاج إليه السلطان

سئل بهرام جور: إلى كم يحتاج السلطان حتى تتم سلطنته وتتكامل بالسرور دولته؟ فقال: إلى سته أصحاب:

الوزير الصالح، ليظهر إليه سره، ويدبر معه رأيه ويسوس أمره، والفرس الجواد، لينجيه يوم الحاجة إلى النجاة، والسيف القاطع، والسلاح الحصين، والمال الكثير، الذي يخف حمله ويثقل ثمنه كالجواهر واللؤلؤ والياقوت، والزوجة الحسناء لتكون مؤنسة لقلبه، مزيلة لكربه، والطباخ الخبير إذا أمسك شيئا دبره بلطف

قال أردشير: حقيق على الملك أن يكون طالبا لأربعة، فإذا وجدهم احتفظ بهم:

الوزير الأمين، والكاتب العالم، والحاجب المشفق، والنديم الصالح

لأنه إذا كان الوزير أمينا دل على بقاء الملك وسلامته، وإذا كان الكاتب عالما دل على عقل الملك ورزانته، وإذا كان الحاجب مشفقا دل على رضا الملك عن رعيته ولم يغضب على أهل مملكته، وإذا كان النديم صالحا دل على انتظام الأمر وصلاحه

قال موبذان في عهد أنوشروان: إنه لا يمكن حفظ السلطنة إلا بالأصحاب الأخيار الناصحين المساعدين، ولا ينفع خير الأصحاب إلا إذا كان الملك تقيا، لأنه ينبغي أن يكون الأصل جيدا ثم الفرع

ومعنى تقوى السلطان وصدقه وصحته أن يكون صحيحا في سائر الأمور، يأمر بالصحة بأقواله وأفعاله ليصح بصحته سائر حشمه ورعيته، وأن يكون واثقا بالله تعالى، وأن يرى أن قدرته وظفره بأعدائه ونصرته ووصوله إلى مراده من الله تعالى، وأن لا يعجب بنفسه فإن أعجب خشي عليه الهلاك

قال تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

وقال أبو عبيدة في أمثاله: من سلك منهج الجد أمن العثار

ويجب أن يكون الوزير عالما عاقلا شيخا، لأن الشاب وإن كان عاقلا لا يكون في التجربة كالشيخ، والذي يتعلمه الناس من تجارب الأيام لا يتعلم إلا من المشايخ

وعز على المرء أن يجد بين دفاتر الكتب وصفحات التاريخ معارف جديرة بالكسب وعلما مستحقا لظفر، لذا فالتجربة مع العلم تقيان من شر بين وجهل فاضح

والوزير زين السلطنة، والزين يجب أن يكون صالحا طاهرا من الشين

ويحتاج الوزير إلى خمسة أشياء لتحمد خبرته، وتحسن سيرته:

التيقظ ليظهر في كل أمر يدخل فيه له وجه المخرج منه، والعلم حتى تتضح له الأمور الحقيقية، والشجاعة حتى لا يخاف من شيء في غير موضع الخوف، والصدق لئلا يعمل مع أحد غير الصحيح، وكتمان سر السلطان إلى أن يدركه الموت

قال أردشير بن بابك: يجب أن يكون الوزير ساكنا، متمهلا، شجاعا، واسع الصدر، حسن المقال، مليح الوجه، مستحيا، صامتا حيث يحسن الصمت، ومتكلما إذا حسن الكلام، ومع ذلك يجب أن يكون تقيا حسن المذهب ليطهر نفسه وينفي عنها كل ما لا يليق

سموك

لابد من حسن الاعتقاد عند الوزير، وينبغي أن يكون ذا تجارب ليسهل الأمور على الملك، متيقظا لينظر عواقب الأمور، ويخاف عليه من تصاريف الدهور، ويتحفظ أن يصيبه عيب الزمان

وكل ملك كان وزيره له محبا مشفقا، كان ذلك الوزير كثير الأعداء، وكان أعداؤه أكثر من أصدقائه

ولا يجوز للسلطان أن يسمع في وزيره كلام المحرضين عليه الساعين به إليه ليحسده أصدقاؤه، وتنكبت أعداؤه

ويجب أن يكون الوزير محمود الطريقة، حتى إذا رأى في الملك خلة مذمومة غير رشيدة رده إلى العادة المستقيمة الحميدة من غير غلظة شديدة، لأن الملك إذا كان على ما لا يريده وسمع ما يكرهه منه من التقريع عمل شرا من ذلك، دليله قول تعالى: (فقولا له قولا لينا) هذا أمر المولى سبحانه لنبيه يبلغه أدب الكلام والنصح لعدوه، الناس أجدر أن يلينوا أقوالهم

وإن كان السلطان يخشن كلامه (فظا في خطابا)، فلا يجوز للوزير أن يحقد عليه، بل يصبر على كلامه في قلبه، فإن قدرة الملك تطلق لسانه فينطق بما يريد

وإذا كان الوزير محبا للملك، صحيح المقال حسن الفعال، كان له عونا على ذلك وأمره بالملازمة لذلك، ولا يجوز أن يعدد حسناته على الملك ولا يمتن بها عليه

قال أهل الفطنة: إذا أحسنت إلى أحد وعددت حسناتك عليه، كان شرا من الامتنان تقريعك له

وينبغي أن يعلم الوزير وسائر خاصة الملك أنهم مهما فعلوه من حسن فإن ذلك بإقبال الملك وببركة ظله انفعل، فالمنة حينئذ تصلح أن تكون له على الناس

وأعظم فساد ينشأ في دولة الملك يكون من أمرين: أحدهما من الوزير الخائن، والآخر من نية الملك الرديئة الفاسدة

قال أنوشروان:

شر الوزراء من جرأ السلطان على الحرب، وجرأه على القتال في موضع يمكن أن ينصلح الحال فيه بغير حرب، لأن الحرب في سائر الأحوال تفني ذخائر الأموال، وفيها تبذل كرائم النفوس ومصونات الأرواح

وقال أيضا: كل ملك كان وزيره جاهلا فمثله كمثل الغيم الذي يبدو ويظهر، ولا يندي ولا يمطر

جاء في كتاب وصايا أرسطاطاليس (ويقال ان عنوانه سر الأسرار): كل أمر ينقضي على يد غيرك بلا حرب ولا خشونة فهو خير مما تقضيه بيدك

وترتيب الوزراء أنهم متى أمكنهم أن يحاربوا بالكتب فليحاربوا، وإن لم تتأت الأمور بالاحتيال والتدبير، فليحتالوا في تأتيها بعطاء الأموال وبذل الصلات والنوال

ومتى انهزم عسكر عفوا عن جنود الجند ولا يستعجلوا بقتلهم، لأنه من الممكن قتل الأحياء ولا يمكن إحياء القتلى أبدا، فإن الرجل يصير رجلا في أربعين سنة، ومن مئة رجل يكون رجل يصلح لخدمة الملوك

وإن أسر أحد من الجند من أصحاب الملك، كان على الوزير أن يفكه ويفديه ويخلصه ويشتريه، ليسمع الجند بصنيعه فتقوى قلوبهم إذا باشروا حروبهم

وعلى الوزير أن يحفظ أرزاق الجند كل إنسان على قدره، وأن يدرب الرجال الشجعان بآلات الحرب، وأن يخاطبهم بأحسن كلام، ويلين لهم في الخطاب، ويلطف بهم في الجواب، فإن الجند قد قتلوا كثيرا من الوزراء في قديم الأيام، وسالف الأعوام

ومن سعادة السلطان ويمن طالعه وتوحده أن يسهل الله له وزيرا صالحا، ومشيرا ناصحا

وجاء أن رسول الله [صلى الله عليه وسلم] قال: < إذا أراد الله بأمير خير قيض له وزيرا نصيحا صادقا صبيحا، إن نسي ذكره وإن استعان به أعانه >

إن الله سبحانه وتعالى يظهر قدرته في كل حين وزمان، ووقت وأوان، ويصطفي جماعة يختارهم من عباده مثل السلاطين والوزراء وأكابر العلماء ليعمر بهم الدنيا

ومن عجائب الزمان حديث البرامكة الذين لم يوجد لهم في الدنيا نظير في الكرم والعطاء، وبذل المعروف والسخاء، وكان تحت حكمهم الولايات الوافرة المرتفعات، وبعد انقراضهم فسدت أحوال الوزراء، ولم يبق لخدمة الملوك رونق ولا نضارة إلى أن أوجد الله بركات آل سلجوق وظل دولتهم إلى النظام، وأوصلهم إلى درجة الوزراء المتقدمين وأرفع، بحيث لم يبق أحد في الدنيا من أهل الفضل والأدباء، وأبناء السبيل الغرباء، من شريف ووضيع، إلا هو مشمول بإحسانهم، مغمور بامتنانهم

ولم يكن أحد من خيرهم محروما، وإنما ذكرنا هذا ليعلم من يقرأ كتابنا هذا الفرق بين الصالح وغير الصالح

قال بزرجمهر: لا تقاس الأشياء بعضها ببعض، لأن جوهر الناس أجل من كل جوهر، وإنما زينة الدنيا جميعها بالناس، والباري تعالى لا ينسب إلى الخطأ وهو واهب الصلاح لمن يشاء، وأنه يؤتي كل أحد ما يصلح له ويليق به

فينبغي أن يكون وزراء الملوك ومدبرو دولتهم على هذه الصفة، وأن يحفظوا رسوم المتقدمين وطرائقهم، وأن يلتمسوا الأموال التي تؤخذ من الرعية في أوقاتها وحينها، وعند وجوبها وإتيانها

والواجب عليهم أن يعرفوا الرسم، ويحملوا الرعية بحسب طاقتها وقدرتها، وأن يكونوا في تصيدهم كصائد طير الكركي لا قاتل العصفور

ولا يجوز أن يحرصوا على تناول أموال المواريث ما دام الوارث موجودا، فالطمع في ذلك مشؤوم غير جائز

ويجب عليهم استمالة قلوب الرعية والحشم، بهبات الفوائد والنعم، ليعلموا أن كفايتهم وسمو مرتبتهم وصلاحهم منوط بصلاح الرعية، ليحسن ذكرهم في الدنيا وينالوا جزيل الثواب في العقبى

الفصل الثاني

في ذكر الكتاب وآدابهم

جلالة الملك المعظم

قالت العلماء ليس شيء أفضل من القلم، لأن به يمكن إعادة السالف والماضي

ومن فضل القلم وشرفه أن سبحانه وتعالى أقسم به فقال عز من قائل: (ن . والقلم وما يسطرون)

وقال أيضا: (اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم)

وقال رسول الله [صلى الله عليه وسلم]: < أول ما خلق الله تعالى القلم فجرى بما هو سائر إلى يوم القيامة >

قال عبد الله بن عباس في تفسير هذه الآية: (إجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) قال: معناه كاتب حاسب

وقال: إن القلم صائغ الكلام

قال ابن المعتز: القلم معدن والعقل جوهر، والقلم صائغ والخط صناعة

قال جالينوس: القلم طبيب الكلام

قال: بليناس: القلم طلسم كبير

قال الإسكندر: الدنيا تحت شيئين: السيف والقلم، والسيف تحت القلم، والقلم أدب المتعلمين وبضاعتهم، وبه يعرف رأي كل إنسان من قريب أو بعيد

ومهما كان الرجل مجربا لزمان فإنه ما لم ينظر في الكتب لا يكون كامل العقل، لأن مدة عمر الإنسان معلومة، ومعلوم أيضا أن في هذه المدة القريبة والعمر القصير كم يمكنه أن يدرك بتجربته، ومعلوم أيضا كم يمكنه أن يحفظ بقلبه

السيف والقلم حاكمان في جميع الأشياء، ولولا السيف والقلم ما قامت الدنيا

وأما الكتاب فلا يجوز لهم أن يعرفوا أكثر من حدود الكتابة وفنونها ليصلحوا للخدمة عند الخاص والعام

وقالت الحكماء والملوك القدماء: ينبغي أن يكون الكاتب عالما بعشرة أشياء:

- عالما ببعد الماء وقربه تحت الأرض
- عارفا باستخراج الإفتاء
- عارفا بزيادة الليل والنهار ونقصانهما في الصيف والشتاء
- عالما بسير الشمس والقمر والنجوم
- مدركا فاهما بآداب الاجتماع والاستقبال
- جامعا للحساب بالأصابع، دارسا لحساب الهندسة
- قارئا فاهما لتقويم واختيار الأيام، ملما بذلك بما يصلح للمزارعين
- دارسا ممارسا لطب والأدوية
- عارفا بالتجربة مفرقا بين ريح الجنوب والشمال
- فحل مجيد في علم الشعر والقوافي

ومع هذا كله ينبغي أن يكون الكاتب خفيف الروح طيب اللقاء، حتى إذا احتاج الملك لتسرية كان الكاتب لذلك كفئا

ويجب على الكاتب أن يكون عالما ببراية قلمه وتدبيره وقطه ورفعه وخطه، وهذا ما يصطلح عليه بفنون الخطاطين

ومهما كان في قلبه أظهره بسنان قلمه، وأن يحرس نفسه من طغيان قلمه، مبينا في خطه، كاشفا في لغته

وعلى الكاتب العالم أن يكون محسنا في انتقاء أدواته من قلم، وكاغد (ورق) وسكين منتجبة لبراية القلم وتصليح الكسر حادة أدق من شعرة لرأس

كان عبد الله بن رافع كاتبا لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقال: كنت أكتب يوما فقال لي أمير المؤمنين ألق دواتك، وأطل جلفة قلمك، ووسع ما بين السطور، واجمع ما بين الحروف

وجاء أن عبد الله بن جبلة كان كاتبا محسنا قال لغلمانه فيما يقول موصيا إياهم بإدراك جوهر الحرفة قوله: ... ولا يجوز إنفاذ كتاب بغير ختم فإن كرم الكتاب ختمه

وقال عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- في تفسير قوله تعالى: (إني ألقي إلي كتاب كريم) أي مختوم

وأمر الحبيب المصطفي أن يكتب كتابا إلى العجم وقال: < إنهم لا يريدون كتابا بغير ختم >

فختمه بخاتمه المبارك المعروف والمشهور عبر العصور

روى صخر بن عمرو أن رسول الله لما كتب كتابا إلى النجاشي رماه على التراب ثم أنفذه، فلا جرم أنه أسلم

ولما كتب كتابا إلى كسرى أبرويز لم يلقه على التراب، لا جرم أنه لم يسلم

وقال عليه الصلاة والسلام: < تربوا كتبكم، فإنه أنجح لحوائجكم >، وقال: < تربوا الكتاب، فإن التراب مبارك >

ولعل هذا الأدب مما كان دارجا وقتها، ولا يصلح لكل العصور، والأصل التمسك بالصحيح المشهور وترك الشاذ المغمور

وإذا كتب الكتاب فليقرأ قبل طيه فإن أبصر فيه خطأ تم تداركه وإصلاحه

وينبغي أن يجتهد الكاتب أن يكون الكلام قصيرا والمعنى طويلا، وألا يكرر كلمة يكتبها، وأن يحترز من الألفاظ الثقيلة الغثة التي قد يكتبها فيجتنبها ليكون كاتبها محمودا

الفصل الثالث

في سمو همم الملوك

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: اجتهد أن لا تكون لك دنيء الهمة، فإني ما رأيت أسقط لقدم الإنسان من تداني الهمة

وقال عمرو ابن العاص: المرء حيث وضع نفسه

يعني إن أعز نفسه علا أمره، وإن أذلها ذل وهان قدره

وتفسير معني الهمة أن يرفع نفسه، فإن أنفة القلب من همم السادة الأكابر، لأنهم يعرفون قدر أنفسهم فيعزونها، ولا يرفع أحد قدر أحد حتى يكون هو الرافع لقدر نفسه

وإعزاز المرء نفسه ألا يختلط بالأراذل، ولا يشرع في عمل ما لا يجوز لمثله أن يعمله، ولا يقول ما يعاب به

والهمة والأنفة للملوك، لأن الله ركب فيهم هذه الخصلة ليتعلمها منهم الوزراء والندماء

قيل أن أبو الدوانيق أمر لرجل بخمسمائة درهم، فقال أحمد بن الخصيب: لا يجوز لملك أن يهب ما دون الألف من الأعداد

وتورد الأخبار أن هارون الرشيد كان في موكب، فسقط فرس رجل من عسكره، فأمر الرشيد للجندي بخمسمائة درهم! فأشار إليه يحيى بعينه وقال: هذا خطأ، استفسر الرشيد عن خطائه فقال له يحيى: لا يجوز أن يجري على لسان أحد من الملوك أقل من الألف من الأعداد، فرد هارون الرشيد: فإن اتفق أمر لا يجوز أن يعطي فيه أكثر من خمسمائة درهم مثل هذا فكيف يقال: قال: قل ليعطي فرسا، فيدفع إليه فرس على جاري العادة والرسم، وتكون قد نزهت همتك عن ذكر الحقير

وقيل أن لهذا خلع المأمون ولده من ولاية عهده، وذلك عندما مر بحجرة العباس ولده فسمعه يقول لغلامه: يا غلام قد رأيت بباب الرصافة بقلا حسنا، فخذ نصف درهم وصل إلى باب الرصافة وائتني بشيء منه! فناداه المأمون: من الآن علمت أن لدرهم نصفا، اذهب فأنت لا تصلح لولاية العهد وتدبير المملكة ولا يأتي منك صلاح ولا فلاح

[والناظر لحالة المأمون وولده قد يتعجب أو حتي يشجب فعلة المأمون، فولده لا ينفق من جيبه، وقد أحسن العباس بن المأمون عندما غل يده عند ساعة الغل، وأحسن التصرف في مصروفه بحفظه وتدبيره، ولكن غاية المأمون بينت أن الأمر ليس هكذا فلو كان عكس ذلك لحثه على عدم التبذير والإسراف، ولكن نفوس الملوك عظيمة لا تعبر الأشياء الحقيرة]

وفي وصية نامة أردشير لولده ما موجزه: واجتهد أنك لا ترغب في التجارة بوجه من الوجوه، فإن ذلك يدل على دناءة همة الملك

جاء أن الأمير عمارة بن حمزة أتهم في حضرة الخليفة أبي جعفر المنصور من رجل قال في حضرة الخليفة يوم نظره في المظالم: عمارة بن حمزة اغتصب ضياعي وابتز ملكي وعقاري

فرد عمارة معاجلا: إن كانت الضياع له فما أنازعه فيها، وإن كانت لي فقد وهبتها له، ومالي حاجة في محاكمته، وما أبيع مكاني الذي أكرمني به أمير المؤمنين بضياع ولا غيرها

فذهل الحاضرون وباركوا علو همته، وشرف نفسه ومروءته

الهمة والنهمة على شكل واحد، وكل إنسان له منهما نصيب، فواحد بالسخاء وإطعام الطعام، وآخر بالعلم، وآخر بالعبادة والقناعة والجد في الدنيا إدراكا لنعيم الأولي والعقبى، وآخر بطلب الزيادة، وعدم الرضا على الحال

وأما الهمة بالسخاء وبذل المال، وإسداء النوال

يقال إن يحيى بن خالد خرج يوما من دار الخلافة قافلا لبيته، فرأى على باب داره رجلا، فلما قرب نهض الرجل وسلم عليه وقال: يا أبا جعفر أنا محتاج إلى ما في يدك، وقد جعلت الله وسيلتي إليك، فأمر له يحيى بموضع كريم من داره، وأمر أن يحمل إليه في كل يوم ألف درهم مدة إقامته، وأن يكون طعامه من طعامه المختص به. فبقي الرجل في داره شهرا، أخذ الرجل الدراهم وانصرف بعد أن وصل ما جمعه في دار يحيى بن خالد ثلاثون ألف درهم

فقيل ليحيى في ذلك (تعجبوا، واستهجنوا فعلة الرجل)، فقال: والله لو أقام مدة عمره، وطول دهره، ما منعته صلتي ولا قطعت عنه ضيافتي

جاء في الأثر أن جعفر بن موسى الهادي كانت له جارية، أرادها محمد ابن زبيدة الأمين لنفسه، فكان بين الإثنين خبر طويل (مناورات)، قال جعفر لابن زبيدة بعد أن التمس شراء الجارية منه: إنه لا يجيء من مثلي بيع الجواري، ولا المساومة في السراري، ولولا أنه مزينة داري، لأنفذتها إليك، ولم أبخل بها عليك

الأصل أن المناورات بين الرجلين انتهت بأن يملأ زورق جعفر الذي عبر به إلى محمد بالدراهم، فكانت كما قيل: ألفي ألف بدرة، وجملتها عشرون ألف ألف درهم

سئل بعض الحكماء: من أعلى الناس حالا؟ فقال: أعلاهم همة، وأكثرهم علما، وأغزرهم فهما، وأصفاهم حالا

قيل له: فبمن ينبغي أن يتوصل ليخلص من نحوسة حظه وضائقته؟

قال: بالملوك والأكابر، وذوي الهمم العالية، والنفوس الشريفة السامية

قيل في المثل: جاوروا بحرا أو ملكا

قول يضرب في التماس الخصب والسعة

قيل أن سعد بن سالم الباهلي: اشتدت به حاله في زمن الرشيد، وكثرة ديونه يعجز عن قضائها، وعسر على أدائها، واحتشد ببابه أرباب الديون، وتزاحم الطالبون ولازمه الغرماء

فقصد لذلك عبد الله بن مالك الخزاعي ملتمسا رأيه، طالبا لإرشاده لباب الفرج

فقال عبد الله: لا يقدر أحد على خلاصك من محنتك وهمك، وضائقتك وغمك، إلا البرامكة

رد الباهلي: ومن يقدر على احتمال تكبرهم، والصبر على تيههم وتجبرهم؟

فقصد الفضل وجعفر ابني يحيى بن خالد، فقص عليهما قصته، مبديا لهما غصته

فقالا: أعانك الله وأقام لك الكفاية!

فبعد ضيق صدره، وانقسام فكره، وانكسار قلبه، قعد بدار عبد الله بن مالك يقول له ما قيل له

فما هي إلا سويعات حتى كان بالباب بغال محملة ومعها رجل يقول أنه وكيل الفضل وجعفر

ومعه رقعة مكتوبه فيها: قص الفضل وجعفر قصتك للخليفة الرشيد، فأمر أن يحمل إليك من بيت المال ألف ألف درهم، تصرفها على غرمائك، أما وجوه النفقة فكانت بثمانمائة ألف درهم أخرى، وزاد عليها من خاصته (الفضل أو جعفر) ألف ألف درهم، فصارت الجملة لديه ألفي ألف درهم وثمانمائة ألف درهم

فأصلح بها حاله

وليعلم أنه حيث كان السخاء وعلو الهمة كانت الراحة والخير، ولكن من ينكر الإحسان ويجحد الامتنان لا أصل له، ونن لا أصل له لا يقدر أن يستر فكره

ذكر أنه كان بين يحيى بن خالد البرمكي وبين عبد الله بن مالك الخزاعي عداوة، انتهت لخير وود ووفاق بينهما، وكل ذلك بفضل رجل من أهل العراق كان له أدب وذكاء وفطنة، فضاق ما بيده وفني ماله، واختل عليه حاله، فزور كتابا عن يحيى بن خالد إلى عبد الله ابن مالك

انتهت الحادثة بالفرج، تصالح المتباغضان وأزيحت الغمة عن الرجل

وتورد هذه الحادثة ليعلم من يقرؤها أن الإنسان إذا كانت همته عالية لا يضيع أبدا كما لم يضع ذلك الرجل، ولو كان خسيس الطبع لالتجأ إلى عمل دنيء وتعلق بلئام الناس، ولكنه لما كان ذا همة سامية، تهور وأقدم وخاطر مع رجل محتشم، كريم الأخلاق، طاهر الأعراق، فوصل بذلك التهور إلى مراده

وأنظر لرجلين الكريمين المحتشمين الزعيمين السيدين، وإلى سمو همتهما بماذا عاملاه وبماذا قابلاه، ولم يريا في مروءتهما عقوبته وعذابه، ونال من بركتهما طلابه، وتخلص من شدة زمانه وضائقته، وأفلت من شر محنته، وعاد ذا نعمة سنية ورتبة علية، وحصل بجميل الذكر على جزيل الأجر

قال بعض الحكماء: إجلال الأكابر من الكرم وحسن الخلال، واحتقار الناس من لؤم الأصل وقبح الخلال، والهمة بغير آلة خفة، وإنما الهمة مع الجد تجمل وتلطف، وتحسن وتظرف، لأن الرجل إذا كان ذا همة وجدة غير مساعد، لم يكن له من همته سوى الانحطاط، لأنه يجب أن تكون الهمة علوية والجد عاليا

وقد قيل أيضا: الكلام بالدرجة والعمل بالقدرة

وينبغي أن تكون الهمة إلى بغداد والزاد إلى فرسخين وكذا الجلال

سموك الكريم

اعلم أن الهمة وإن تأخرت فإنها توصل صاحبها إلى مراده يوما من الزمان

قال الشاعر:

سعيـــي لمجـــد ولولا صدق المعرفة ... أني سأدرك ما قد كنت أطلبه
لو كنت في خدمة السلطان ذا طلب ... للزاد ما كنت من خاميه أخطبه

وإنما المحمود في الرجال أن لا يتجاوز بهمته فوق قدره وقدرته، لئلا يعيش مغتما طول زمانه ومدته

قال الشاعر:

لـــو كنت تقنع بالكفاية لم يكن ... بالـــدهر أرفه منك عيشا فيه
أو كنـت يوما فوق ذلك طامـعا ... لم تكـــفك الدنيا بما تحـــويه
ماذا يفـيد علـــو همـــتك الذي ... لا يستجيب لنـــيل ما تبـــغيه

الفصل الرابع

في ذكر حلم الحكماء

أيها العظيم

الحكمة عطاء من الله جلت قدرته يؤتيها من يشاء من عباده

قال سقراط: مثل من أعطاه الله الحكمة وهو يعرف قدرها وهو بحرصه يعمل للدنيا وللمال الكثير، كمثل من يكون في صحة وسلامة فيبيعها بالتعب والنصب، فإن ثمرة الحكمة الراحة والعلاء، وثمرة المال التعب والبلاء

قال ابن المقفع: كان لملوك الهند كتب كثيرة بحيث كانت تحمل على الفيلة، فأمروا حكمائهم أن يختصروها، فاتفق العلماء في اختصارها فاختصروها على أربع كلمات:

إحداها للملوك وهي العدل، والثانية للرعية وهي الطاعة، والثالثة للنفس وهي الإمساك عن الطعام إلى وقت الجوع، والرابعة للإنسان وهي أن لا ينظر إلى غير نفسه

قال بعض الحكماء، الناس أربعة:

- *رجل يدري ويدري أنه يدري فذلك عالم فاتبعوه*
- *ورجل يدري ولا يدري أنه يدري وذلك ناس فذكروه*
- *ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك مسترشد فأرشدوه*
- *ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فاحذروه*

قيل: أقرب الأشياء للمرء الأجل وأبعدها عنه الأم

قال لقمان الحكيم لابنه: شيئان إذا حفظتهما لا تبالي بما ضيعت بعدهما: درهمك لمعاشك، ودينك لمعادك

سأل أنوشروان بزرجمهر: لأي شيء يمكن أن يجعل العدو صديقا؟ قال: لأن تخريب العامر أسهل من عمارة الخراب، وكسر الزجاج إذا كان صحيحا أسهل من تصحيحه إذا كان مكسورا

وقال: صحة الجسم خير من شرب الأدوية، وترك الذنب خير من الاستغفار، وكظم الشهوات خير من كظم الحزن، ومخالفة الهوى في الاستكبار خير من دخول النار

طاف رجل من المتقدمين البلاد لعدة سنين معلما الناس هذه الكلمات:

من ليس له علم فليس له عز في الدنيا ولا الآخرة، ومن ليس له صبر فما له سلامة في دينه، ومن كان جاهلا لم ينتفع بعمله، ومن لا تقوى له فما له عند الله كرامة، ومن لا سخاء له فما له من ماله نصيب، ومن لا طاعة له فما له عند الله حاجة

سئل بزرجمهر: أي عز يكون بالذل متصلا؟ قال: العز في خدمة السلطان، والعز مع الحرص، والعز مع السفه

وسئل أيضا: بماذا يؤدب البله؟ فقال: بأن يؤمروا بكثرة الأعمال، ويستخدموا في مشقات الأشغال، بحيث لا يجعل لهم إلى الفضول طريقا ولا فراغا

وبماذا يؤدب الأخساء؟ قال: بإهانتهم واحتقارهم، ليعرفوا وضاعة أقدارهم

فبماذا يؤدب الأحرار؟ قال: بالتوقف في قضاء حوائجهم

وسئل أيضا: من الكريم؟ أجاب: الذي يهب ولا يذكر أنه وهب

قيل له: أمن شيء أعز من الروح تتلف فيه ولا تبالي الناس؟ قال: ثلاثة أعز من الروح: الدين، العقل والخلاص من الشدائد

سئل أيضا: في أي سيء يكون العلم والكرم والشجاعة؟ رد: زينة العلم الصدق، وزينة الكرم البشر، وزينة الشجاعة العفو عند المقدرة

قال يونان الوزير (وزير كسرى أنوشروان): أمارة المرء عظيم البلاء: كثرة العيال مع قلة المال، والجار المسيء الجوار، والمرأة التي لا تقية لها ولا وقار

اتفق أهل الدنيا على أن أعمال الخلائق كلها خمسة وعشرون وجها...

خمسة منها بالقضاء والقدر وهي: طلب الزوجة، والولد، والمال، والملك، والحياة
وخمسة منها بالكسب والإجتهاد: العلم، والكتابة، والفروسية، ودخول الجنة، والنجاة من النار
وخمسة منها بالعادة: المشي في الطريق، والأكل، والنوم، والجماع، والبول، والغائط
وخمسة منها بالإرث: الجمال، وطيب الخلق، وعلو الهمة، والتكبر، والدناءة
وخمسة منها بالطبع: الوفاء، والمداراة، والتواضع، والسخاء، (والشجاعة)

ستة أشياء تساوي الدنيا: الطعام السائغ، والولد السليم الأعضاء، والصاحب الموافق، والأمير المشفق، والكلام الصحيح النظام، والعقل التام

قال الحكيم، خمسة أشياء ضائعة: السراج في الشمس، والمطر في السباخ المالحة، والمرأة الحسناء عند الأعمى، والطعام الطيب يقدم بين يدي الشبعان، وكلام الله سبحانه في صدر الظالم

سئل الإسكندر: لما تكرم معلمك فوق كرامة أبيك؟ فقال: أبي سبب حياتي الفانية، ومعلمي سبب حياتي الباقية

قال سقراط، خمسة أشياء يهلك بها الإنسان: خديعة الأصدقاء، والالتفات عن العلماء، واحتقار الرجل نفسه، وتكبر من لا يسوى (الأراذل)، واتباع الهوى

وقال أيضا، خمسة لا يشبع منها خمس: عين من نظر، وأنثي من ذكر، وأذن من خبر، ونار من حطب، وعالم من علم

سئل أرسطو: أي صديق أوثق، وأي صاحب أشفق؟ أجاب: الصديق الأصيل أوثق، والصاحب القديم أشفق، وتدبير العقلاء أفضل

قال جالينوس، سبعة أشياء تجلب النسيان: استماع الكلام الخشن ولا يتصوره القلب، والحجامة على خرزة العنق، والبول في الماء الراكد، وأكل الحوامض، والنظر في وجه الميت، والنوم الكثير، والنظر في الأماكن الخراب

وقال أيضا في كتاب الأدوية، إن النسيان يحدث من سبعة أشياء: البلغم، وضحك القهقهة، وأكل المالح، واللحم السمين، وكثرة الجماع، والسهر مع التعب، وسائر البرودات والرطوبات فإن أكلها يضر ويجلب النسيان

قال أبو القاسم الحكيم: فتن الدنيا تنشأ من ثلاثة نفر: من قائل الأخبار، وطالب استماع الأخبار، ومتلقي الأخبار، وهؤلاء الثلاثة لا يخلصون من الندامة

ثلاثة أشياء لا تجتمع مع ثلاثة: أكل الحلال مع اتباع الشهوات، والشفقة مع ارتكاب الغضب، وصدق المقال مع كثرة الكلام

ساميا الجلالة

قال بزرجمهر الحكيم: إن شئت أن تصير من جملة الأبدال فحول أخلاقك إلى أخلاق الصبية الأطفال: فقيل له: كيف ذلك!؟ قال: في الأطفال خمس خصال لو كانت في الكبار لكانوا أبدالا وهي:

- *أنهم لا يغتمون لرزق*
- *وإذا مرضوا لم يشكوا من خالقهم تعالي*
- *وأنهم إذا أكلوا الطعام أكلوه مجتمعين*
- *وإذا تخاصموا لم يتحاقدوا، ولصلح سارعوا*
- *وأنهم يخوفون فيخافون بأدنى تخويف وتدمع لذلك أعينهم*

قال وهب بن منبه: في التوراة كلمات مكتوبات وهي: كل عالم لم يكن متورعا فهو كاللص، وكل رجل خلا عن عقل فهو والبهيمة على مثال واحد

أصل الزعامة العطف، وأصل الذنب العجلة، وأصل الذل البخل

ينبغي أن يسمع كلام الحكمة من غير حكيم، فإنه قد يصيب الغرض من لم يكن راميا

قال الأحنف بن قيس: لا صديق لملول، ولا وفاء لكذوب، ولا راحة لحسود، ولا مروءة لدنيء، ولا زعامة لسيء الخلق

قال بزرجمهر: العوافي أربعةوهي:

عافية الدين، وعافية المال، وعافية الجسم وعافية الأهل
فأما عافية الدين ففي ثلاثة أشياء: أن لا تتبع الهوى، والعمل بأمر الشارع، وأن لا تحسد أحدا
وعافية المال في ثلاث: إنعام النظر، وأداء الأمانة، وإخراج الحق من المال
وعافية الجسم كذلك في ثلاث: قلة الأكل، والإقلال من الكلام، والإقلال من النوم
وعافية الأهل في ثلاثة أشياء: القناعة، وحسن العشرة، وحفظ طاعة المولي تعالي

سئل حاتم الأصم: لأي شيء لا نجد ما وجده المتقدمون؟ قال: علة ذلك فوات خمسة أشياء عنكم: المعلم الناصح، والصاحب الموافق، والجهد الدائم، والكسب الحلال، والزمان المساعد

جاء في الخبر أن رسول الله [صلى الله عليه وسلم] قال: < يا علي أقبل علي بوجهك، واخل إلي قلبك وسمعك، كل وغط، واجمع وهب، وتشدد >

فقال علي: ما معني هذه الكلمات يا رسول الله؟ فقال: < كل الغضب وغط عيب أخيك، وهب ظلم الظالم، واجمع لذلك القبر المظلم، وتشدد في دين الإسلام >

سئل حكيم: أي شيء أكثر بين الخلق؟ فقال: كثرة التدبير وليس القدرة، ومع الاستكثار لا تزول الحاجة، والعبد يحرص على كل شيء إلا على الفقر فليس يحرص عليه أحد، لأن الخلق كلهم يطلبون الغنى، ولا يحرص أحد على الغم لأن الكل يطلبون السرور ويحرصون على الفرح، ولا يحرص أحد على الموت لأنهم جميعا يحرصون على الحياة

قال أبو القاسم الحكيم: هلاك العبد في شيئين: المعصية، والانفراد بالرأي

قالت الحكماء: بلاء الخلق من ثلاثة: العلماء المضلين، والقراء البله، والعوام الحسدة

قيل: لا تطلب صحبة من طامع، ولا تطلب وفاء من خسيس الأصل

شيئان غريبان حيرا الحكماء في هذا الزمان: الدين والفقر

أربعة أحوال إن حفظتها كنت من جملة الرجال:

- الأولي سرك، يجب أن يكون بحيث إذا علمه الناس رضيت
- والثاني علانيتك، يجب أن تكون بحيث لو اقتدى الناس بك جاز لك
- والثالث المعاملة، عامل الناس بما لو عاملوك به اخترته لنفسك
- والرابع حالتك، أن تكون حالتك لناس بحيث لو كانت لك رضيت بها

ينبغي أن تنظر ثلاثة أشياء بعين ثلاثة: أن تنظر الفقراء بعين التواضع لا بعين التكبر، وأن تنظر الأغنياء بعين النصح لا بعين الحسد، وأن تنظر النساء بعين الشفقة لا بعين الشهوة

قال وهب بن منبه، في التوراة مكتوب أن أم المعاصي ثلاثة: الكبر، والحرص، والحسد؛ وأنها نتيجة خمسة أشياء: الأكل، والنوم، وراحة الجسم، وحب الدنيا، ومدح الناس

وقال: من خلص من ثلاثة أشياء فمأواه الجنة: المنة، والمؤونة، والملامة، وإذا أحسن لم يمن بإحسانه، وأن يخفف مؤونته عن الناس، وإذا رأى في أحد عيبا لم يلمه

يقال إن ابن القرية دخل على الحجاج وكان من أكابر أهل زمانه فطنة وعلما، فسأله الحجاج وقال له:

ما الكفر؟ قال: البطر بالنعمة، والإياس من الرحمة
ما الرضى؟ قال: الثقة بقضاء الله، والصبر على المكاره
ما الحلم؟ رد: إظهار الرحمة عند المقدرة، والرضى عند الغضب
ما الصبر؟ أجاب: كظم الغيظ، والاحتمال لما يراد
ما الكرم؟ قال: حفظ الصديق، وقضاء الحقوق
ما القناعة؟ رد: الصبر على الجوع، والعري عن اللباس
ما الغنى؟ أجاب فقال: استعظام الصغير، واستكثار القليل
ما الرفق؟ قال: إصابة الأشياء الكبيرة بالآلة الصغيرة الحقيرة
ما الحمية؟ قال: الوقوف على رأس من هو دونك
ما الشجاعة؟ أجاب: الحملة في وجوه الأعداء والكفار، والثبات في موضع الفرار
ما العقل؟ رد: صدق المقال، وإرضاء الرجال
ما العدل؟ قال: ترك المراد، وصحة السيرة والاعتقاد
ما الإنصاف؟ رد بالقول: المساواة عند الدعاوى بين الناس
ما الذل؟ أجاب: المرض من خلو اليد، والانكسار من قلة الرزق
ما الحرص؟ قال: حدة الشهوة عند الرجال
ما الأمانة؟ قال: قضاء الواجب
ما الخيانة؟ رد: التراخي مع القدرة
فما الفهم؟ أجاب: التفكر وإدراك الأشياء على حقائقها

ثمانية تجلب الذل على أصحابها وهي: جلوس الرجل على مائدة لم يدع إليها، ومن تأمر على صاحب البيت، والطامع في الإحسان من أعدائه، والمصغي إلى حديث اثنين لم يدخلاه بينهما، ومحتقر السلطان، ومن جلس فوق مرتبته، ومن تكلم عند من لا يستمع، ومن صادق من ليس بأهل

سئل بزرجمهر: أي سيء يقبح بالإنسان ذكره وإن كان صحيحا؟ قال: مدح الإنسان نفسه، لأنك لا تجد بخيلا ممدوحا، ولا ذا غضب مسرورا، ولا عاقلا حريصا، ولا ترى كريما حاسدا، ولا قنوطا عنيا، ولا تجد لملول صديقا

خمسة يفرحون بخمس ثم يندمون بعدها: الكسلان إذا فاتته الأمور، والمنقطع عن إخوانه إذا نالته شدة، ومن أمكنته فرصة على أعدائه ثم عجز عن انتهازها، ومن ابتلي بامرأة سوء وتذكر الصالحة قبلها، والرجل الصالح يندم على ارتكاب الذنوب

سئل بزرجمهر: هل يقلب المال قلوب العلماء من الرجال؟ قال: من قلب المال قلبه فليس بعالم

قال الحكيم: العتاب الظاهر خير من الحقد الباطن

قال بزرجمهر: أصحاب الغم والحزن في الدنيا ثلاثة: محب فارق حبيبه، ووالد شفوق ضل عنه ولده، وغني عاد فقيرا

قال عمرو بن معدي كرب: الكلام اللين يلين القلوب التي هي أقسى من الصخر، والكلام الخشن يخشن القلوب التي هي أنعم من الحرير

قيل: الحزن مرض الروح كما أن الوجع مرض الجسد، والفرح غذاء الروح كما أن الطعام غذاء الجسد

طلب سيد حكيم من رجل أن يدينه دينار فلم يفعل، فقال الحكيم له: لم يمنعك إلا أن احمر وجهي من الحياء مرة واحدة، ولو أعطيتني لم يصفر وجهي من مطالبتك مرة بل ألف مرة

قيل: من ليس له لب ولا خطر فهو شجر بلا ثمر

وقيل أيضا: من سل سيف الجور قتل به، ومن لم ينصف من نفسه لم يخلص من حسرته، ومن أطلق يده بالعطاء أشرق وجهه بالضياء

سموك

اعلم أن الشباب رضيع الجنون، والشيب قرين التوفيق والسكون

وقيل أيضا: تزود طاهر الزاد، ولا تخف من الأضداد

قيل ثلاثة تذهب عن القلب العمى: صحبة العالم، وقضاء الدين، ومشاهدة الحبيب

شيئان يجلبان الحزن إلى القلب: الطمع في جود البخلاء، والمراء مع الوضعاء

تجنب أربعة أشياء لتخلص من أربعة أشياء:

تجنب الحسد لتخلص من الحزن
ولا تجالس جليس السوء وقد تخلصت من الملامة
ولا ترتكب المعاصي وقد خلصت من النار
ولا تجمع المال (بخلا وشحا) وقد خلصت من العداوة

أربعة أعمال مذمومة يعملها الناس فيجازون بها في الدنيا والآخرة: الغيبة، فقد قيل فارس يلحق سريعا!، والثاني احتقار العلماء لأن من احتقر عالما عاد حقيرا، والثالث كفران نعم الله، والرابع قتل النفس بغير حق

مثل قديم: كل قاتل مقتول ولو بعد حين

قال الشاعر:

إذا مكنت بالسكــين كــفا ... لقتل الناس فــاذكر السبيلا
رأى عيسى قتيلا في طريق ... فعض على أنامله طويلا
وقال لمن قتلت نراك حتى ... غدوت كما أرى ملقى قتيلا
وقاتلك الذي أرادك أيضا ... يذوق القــتل فليطل العــويلا

الباب الرابع

في شرف العقل والعقلاء وخير النساء

جلالة الملك المعظم

إن الله تعالى خلق العقل على أحسن صورة وقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت في خلقي شيئا أحسن منك! بك أعطي وبك أحاسب وبك أعاقب

شيئان موقفان على العقل هما الأمر والنهي وهي لله تعالى على العباد جل ذكره قال: (فاتقوا الله يا أولي الألباب) هم ذوو العقول، واشتقاق العقل من العقال، والمعقل المنيع القلعة على رأس الجبل لا يصل إليها أحد لامتناعها وقوتها وإحكامها

[رجلان أتاهما الله حقل لكل واحد منهما حقل مثل أخيه:

الأول، كد واجتهد، وزرع وحصد، وفي كل سنة يحصل عشرة آلاف دينار ذهبي، يأكلها طول عمره في كل موسم حصاد لبقية سني حياته

الثاني، تكاسل وتهاون، حتى بار الحقل وكسد، فقرر بيعه بعشرة آلاف درهم فضي، أكلها مرة في عمره وشقي لبقية سني حياته

هذا هو الفرق بين العاقل والجاهل، والحقل حقلك وهبة الله لك فلا تبعه بثمن بخس، هل يستوى الذي يعلم والذي لا يعلم]

سئل حكيم الفرس: لم سمي العاقل عاقلا؟ قال: للعاقل علامات يعرف بها وهي:

أن يتجاوز عن ذنب من ظلمه، وأن يتواضع لمن دونه، وأن يسابق إلى فعل الخير لمن هو أعلى منه، وأن يذكر ربه دائما، وأن يتكلم عن العلم ويعرف منفعة الكلام في موضعه، وإذا وقع في شدة التجأ إلى الله تعالى

وكذلك للجاهل علامات يعرف بها وهي: أن يجور على الناس ويظلمهم ويعسف بمن دونه، وأن يتكبر على الزعماء المتقدمين، وأن يتكلم بغير علم، وأن يسكت عن خطأ، وإذا وقع في شدة أهلك نفسه، وإذا رأى أعمال الخير لفت عنها وجهه

قال سعيد بن جبير:

ما رأيت للإنسان لباسا أشرف من العقل، إن انكسر صححه، وإن ذل عزه، وإن سقط في هوة جذبه بضبعه (ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاها) منها واستنقذه منها، وإن افتقر أغناه

وأول شيء يحتاج إليه البليغ العلم الممتزج بالعقل

صاحب المقام المهيب

يقال أنه في يوم من الأيام جلس المأمون يناظر الفقهاء كعادته (من كل أسبوع يومان)، فدخل رجل منكر الهيئة عليه ثياب بياض رثة منظما لمجلسهم، متخذا لنفسه مكانا بعيدا في مكان مجهول

دارت المسائل بين العلماء والفقهاء مسألة مسألة، كعادتهم كل يدلي بدلوه فيها، حتى وصلت الرجل الغريب، فتكلم بكلام عجيب استحسنه المأمون فأمر أن يرفع إلى أعلى من ذلك الموضع، فالثانية فقربه وأعلي من مقامه أكثر، فالثالثة فوقر في عقل الخليفة المأمون فأجلسه بقربه

انقضت المناظرة، فجيء بالماء فغسلوا أيديهم، ثم الطعام فأكلوا، ثم خرج الفقهاء، تقرب المأمون من الغريب، وطيب قلبه ووعده بالإحسان والإنعام عليه

ثم عبى (تهيأ) مجلس الشراب ونضد (اتسق)، وحضر الندماء وذات الراح

وصل الدور لرجل فنهض قائما وقال:

قد علم الرأي العالي زاده الله علوا أن العبد كان في المجلس الشريف من مجاهيل الناس ووضعاء الجلاس، وأن أمير المؤمنين بقدر يسير من العقل الذي أبداه جعله مرفوعا على درجة غيره، وبلغ به الغاية التي لم تسم لها همته، وأن العبد إذا شرب الشراب تباعد عنه العقل وقرب منه الجهل وسلب أدبه، فعاد إلى تلك الدرجة، ووقع في أعين الناس كما كان ذليلا، فإن رأى الرأي العالي أن لا فرق بينه وبين ذلك القدر اليسير من العقل الذي أعزه به بعد الذلة، وكثره بعد القلة، بمنه وفضله وكرمه، وسيادته وحسن شيمه، فعل متطولا، وأنعم متفضلا

زاد إعجاب المأمون به وثبته في رتبته ووقره، وأمر له بمائة ألف درهم، وحمله على الفرس، وجمله بأحسن الثياب، صار أرفع الفقهاء درجة، وأعلى منزلة

تورد هذه الحادثة من أجل نعت العقل، لأن العقل يوصل صاحبه إلى درجة عالية، ومرتبة سامية، والجهل يحط صاحبه عن درجته ويهبط به من علو مكانته

كان لأبي جعفر المنصور صاحب من رحلة تعلمه في الشام، صاحبه هذا كان غث المنطق وسيء الأدب، دخل على أبي الدوانيق (الخليفة أبي جعفر المنصور) في ثلاث مناسبات، متحججا في كل واحدة بعلة، فالأولي كانت العلة رغب برؤية صاحبه فأمر له المنصور له بألف درهم، والثانية كانت العلة جاء معزيا المنصور في أحد أولاده فأمر له بخمسمائة درهم، والثالثة جاء يقول أنه يريد دعاء الحاجة الذي ضاع منه، وأن كل من دعا به في حاجة قضى الله حاجته، وجاء يطلب نسخة من أمير المؤمنين، قال المنصور له:

لا تتعب في طلب ذلك الدعاء فإنه غير مستجاب، وإنني قد دعوت به منذ ثلاث سنين ليخلصني الله من صداعك فلم أخلص، ولو كان مستجابا لتخلصت منك

خجل الرجل لما سمع هذا الكلام

تورد هذه الحادثة لأن الإنسان إذا كان عالما ولم يكن له عقل سقط جاهه ومرتبته

كان للمنصور صديق قصده لما صار خليفة، فدخل عليه وكان عاقلا لبيبا ولم يكن عالما، وسأل الخليفة أي أحب الطرق يحب صاحب المقام العلي منه أن يتقرب ويتودد بها لحضرته، قال المنصور:

أخر الزيارة، وإذا زرتني فأجعل بين زيارتك وانقطاعك مدة إذا غبت فيها لم أنسك، وإذا حضرة لم أملك، وازدادت محبتك عندي عما كانت عليه أولا؛ وإذا دخلت فاجلس بعيدا مني حتى يقربك الحاجب بالتدرج، ولا تطل جلوسك فتنسب لسوء الأدب، ولا تسأل حاجتك لئلا تثقل على قلبي، وإذا أحسنت إليك فاشكرني في كل محلة تحلها ومنزلة تنزل، بحيث إذا بلغني سررت بشكرك، وازددت في برك، ولا تذكر في المجالس ما جرى بيني وبينك في الزمان الماضي

فامتثل الرجل للوصايا، فكان يدخل عليه في كل سنة مرتين يسلم فيهما عليه، في كل مرة يسلم كان المنصور يعطيه ألف درهم

تورد هذه الحادثة ليعلم أن من كان له عقل وإن لم يكن عالما فإن عقله يكون له دليلا، ومن كان ذا علم وليس له عقل عادت أموره كلها منعكسة منقلبة، ومن كان تام العقل والعلم كان في الدنيا نبيا أو حكيما أو إماما، فإن جمال الإنسان وعزه ومرتبته وصلاح أحوال دنياه وآخرته بالعقل وتمامه، فتتكامل صفاته وأقسامه

قال الشاعر:

بالعــقل ينال المرء أوج البــدر ... والعقل به الجــاه وسامي القدر
والعــقل به يغسل عــار الوزر ... في العقل التــاج مع نفـاذ الأمر

سموك

العقل أول الإيمان ووسط الإيمان وآخر الإيمان (العقل إيمان)

قال بعض القدماء: ليس العقل أن الإنسان إذا وقع في أمر اجتهد في حسن خلاصه منه، بل العقل أن لا يوقع نفسه في أمر يحتاج إلى الخلاص منه

قال أبرويز الملك لولده: احفظ الرعية لحفظك العقل، واصرف آفتك عن الرعية ليصرف العقل آفته عنك! واعلم أنك حكم بين الناس، والعقل حكم جليل، فكما ينبغي أن يقبل الناس أمرك، فكذلك ينبغي أن تقبل أمر العقل

في رد كسرى أنوشروان على كتاب من وزيره يونان:

أيها الحكيم لقد أحسنت في تأدية رسالة العقل، لأننا ومن تقدمنا من الملوك إنما تحلينا بالعقل، فكيف يمكننا مخالفته! فإن العقل أقرب المخلوقات إلى الخالق، والعقل كالشمس في الدنيا وهو قلب الحسنات، والعقل حسن في كل واحد وهو في الأكابر والزعماء أحسن، كالرطوبة في الشجرة ما دامت طرية رطبة كان الناس من رائحتها ونشر أزهارها وطيب ثمارها ونضارتها وطراوتها في سرور وغبطة ونزهة وفرحة، فإذا جفت رطوبتها وقحلت نضارتها فلا تصلح حينئذ سوى للقلع؛ وكذلك الإنسان مادام عقله قويما، وجسمه سليما، وصحبته مباركة، ومواصلته حسنة نافعة، فإذا زال عقله، وغلب عليه جهله، فحينئذ لا يصلح للحياة، ولا يستره غير الوفاة

وقال أنوشروان أيضا: كيف يسعني أن أخالف العقل ولا أفعل ما يأمرني به العقل، وأنه ليس لملك ولا رعية خير من العقل؟ فإن بضيائه يفرق بين المليح والقبيح، والجيد والرديء، والحق والباطل، والصدق والكذب

قال بزرجمهر: شيئان لا يمكن وجودهما في شخص كاملين: العقل والشجاعة

قال لقمان الحكيم: مهما كان الرجل عالما فإنه لا ينتفع بعلمه ما لم يكن العقل لعلمه مصاحبا

سأل أنوشروان بزرجمهر: من تحب أن يكون أعقل الناس؟ قال: العدو إذا عاداني، فقال له: ولم؟ قال: لآمن إساءته

وكل شيء إذا كثر هان إلا العقل، فإنه كلما كان أكثر كان صاحبه أعز

قيل لبزرجمهر: أي شيء لابد للإنسان منه ولا مندوحة له عنه؟ قال: العقل، فقيل له: ما قدر العقل؟ رد: شيء لا يوجد في الإنسان كاملا كيف يعرف قدره

جميع الأشياء مفتقرة للعقل والعقل مفتقر إلى التجربة، ولا غنى أعم من العقل، ولا فقر أشد من الجهل، وكل من كان علمه أكثر كانت حاجته إلى العقل أوفر، والمرء في هذا كراع ضعيف معه قطيع كبير، هذا القول يضرب في العالم الذي لا عقل له

قالت العلماء: العقل أمير وله جنود، وجنوده التمييز والحفظ والفهم

وسرور الروح العقل لأن به ثبات الجسم، والروح سراج نوره العقل ثم ينبسط في جميع الجسد، والعاقل لا يغتم أبدا لأنه لا يفعل ما يوجب الاغتمام، ولا يشرع في أمر لا يجوز لمثله الاهتمام به

سئل ابن العباس: العقل خير أم الأدب؟ قال: العقل، لأن العقل من الله تعالى والأدب تكلف من العبد

وسئل عبد الله بن المبارك: العقل خير أم الأدب؟ قال: العقل، فقيل له: ما العقل؟ قال: العقل تعلم العلم، والعمل بالعلم أن تعلم أنه ينبغي أن تعمل، والعقل أنك متى علمت عملت

كما تفوح من الميتة الرائحة المكروهة يفوح من الجاهل نتونة الجهل فتضر به وبجيرانه وأقاربه

سئل حكيم من الحكماء: ما العقل؟ قال: سداد وعقد بين ثلاثة وعشرين شيئا، فلولا هذه العقود لاختلط الجيد بالرديء:

- *عقد بين التوحيد والشرك*
- *وعقد بين الإيمان والكفر*
- *وعقد بين الجد والتهور*
- *وعقد بين الإسلام والغفلة*
- *وعقد بين اليقين والشك*
- *وعقد بين العافية والبلاء*
- *وعقد بين الكرم والبخل*
- *وعقد بين حسن الخلق والقباحة*
- *وعقد بين التواضع والكبر*
- *وعقد بين الصداقة والعداوة*
- *وعقد العلم والجهل*
- *وعقد بين الحياء والوقاحة*
- *وعقد بين الحق والباطل*
- *وعقد بين الرزانة والخفة*
- *وعقد بين الظلمة والضياء*
- *وعقد بين الكرامة والذلة*
- *وعقد بين الطاعة والمعصية*
- *وعقد بين ذكر الله والغفلة*
- *وعقد بين النصيحة والحسد*
- *وعقد بين السنة والبدعة*
- *وعقد بين الرحمة والقساوة*
- *وعقد بين الحلم والحمق*

قال صاحب الكتاب رحمه الله تعالى: جميع محاسن الدنيا في العقل، وسائر العلوم والأعمال مرجعها إلى العقل

جميع الأشياء منوط بالعلم والعلم أسير، والتدبير والعقل توأمان، ومن آتاه الله العقل فقد آتاه خيرا كثيرا

قال الشاعر:

إن كنت من أصل جوهر منسوب ... أو يوسف الحسن ولد يعقوب
ما أنت مجالس بعقلك المحبـوب ... في الناس سوى محقر معيوب

لتعلم أيها الأخ كنه العقل ونفاسته وعلو قيمته، فيجب عليك أيها العاقل الحمد والشكر لواهب الشكر الباري جلت قدرته

سموك رفيع المقام

خير النساء وأبركهن الحسناء الولود الخفيفة المهر

قال عليه الصلاة والسلام: < عليكم بالمرأة الحرة فإنها أطهر وأبرك >

وقال الفاروق: التجئوا إلى الله عز وجل من شرار النساء، واحذروا خيارهن

[ولم يرى مثل النساء أعجوبة، ولا أفتك بالرجل منها سلاحا، ولا أحكم منها شبكة، فهي غرابتها حلاوة، ووحشتها عداوة، وودها غاية، إن رامت كادت، وإن كادت فتكت، رمت الأنبياء والملوك والحكماء عند قدميها

فأول أقعدته السجن والثاني أتلفت ملكه وروحه (قيصر)، والثالث دخل فيها النار (قصة العابد الذي قال له الشيطان أكفر فكفر، وأول خبره نظرة من لامرأة)

لم يعرف مثلها أذهب بعقل الفتي، ولا تحدث التاريخ ولا أحصى العالم قتلاها]

قال صاحب الكتاب: من أراد صلاحه وتدبيره ولم يجد المرأة الحسناء يلهو بها فعليه بالمرأة الدينة، فذات الدين خير وأبرك، وإذا جاءت الديانة أتى المال وكان أبرك، لأن المرأة التي لا دين لها فما لها أصل ولا معها بركة، وببركة الديانة يوجد كل خير

يروى أنه كان بمدينة مرو رجل اسمه نوح بن مريم، وكان رئيسها وقاضيها، وكان له ابنة حسناء ذات بهاء وكمال، أرادها الأكابر والرؤساء، لم يدر أبوها لمن يعطيها وخاف إسخاطهم إذا أعطاها لأحدهم

فقرر أن يعطيها لغلام هندي لديه اسمه المبارك بعد أن لمح فيه الأمانة وغزارة العقل، بعد أن تشاوروا لمن تزوج ابنته وأنبئه أنه يريده لها، قال له مبارك: إن الكفار في زمن الجاهلية كانوا يريدون الأصل والنسب والبيت والحسب، واليهود والنصارى يطلبون الحسن والجمال، وفي عهد رسول الله [صلى الله عليه وسلم] كان الناس يطلبون الدين والتقى، أما وفي زماننا هذا فالناس يطلبون المال فاختر من هذه الأربعة ما تريد، قال القاضي: قد اخترت الدين والتقى والأمانة، أريد أن أزوجك ابنتي، لأني قد وجدت فيك الصلاح والديانة والأمانة

شاور ابنته التي لم تعترض على قرار أبيها، فزوج القاضي ابنته بالمبارك، وأعطاهما مالا عظيما، فأولدها المبارك ولدا وسماه عبد الله، وهو معروف في جميع العالم وهو عبد الله بن المبارك صاحب العلم والزهد ورواية الأحاديث، فما دامت الدنيا يحدث عنه ويروى

فرحمة الله عليك يا عبد الله بن المبارك، قيل ذات يوم له: لما تنهانا عن التجارة وكنز المال وأنت أكثر مالا وأعرفنا بالتجارة وأصولها؟، قال لجمهرة من العلماء الجالسين حوله والسائلين له: لأن مثلي ينفق ماله على أمثالكم، فعليكم بالعلم وعلى النفقة

نعم أيها الأخ، إذا تزوجت فاطلب ذات الدين ولا تطلب ذات الصيت والمال، فإن المال يعود وبالا ولا تعطيكه المرأة، وإذا أردت أن تطلب زوجة فلا تطلبها وتخطبها لأجل بلوغ الشهوة، وارغب فيها بنية أنها دينة وصالحة، لتكون في خدرك وطاعتك وتكون لك سترا من النار

جاء أنه نزل بدار عبد الله بن المبارك ضيوف ولم يكن له ما يضيفهم به، فذبح لهم فرسه الوحيد التي كان يحج عليها سنة ويغزو سنة، قالت له زوجته: سبحان الله ما كنت تملك سوى هذا الفرس من الدنيا فلم ذبحته؟ فدخل بيته، وأخرج متاعا بقدر مهرها وطلقها في ساعتها وقال: امرأة تبغض الأضياف لا تصلح لنا

أتاه بعد أيام رجل له بنت توفيت أمها، طلب منه الرجل ما يسليها، فكان له ذلك يوم جلوسه على المنبر، تسلت الصبية بحديثه فزال غمها وانكدر همها وأقل حزنها، تشاورت البنت مع أبيها في أن يطلبها له، وهذا ما كان فزوجها أبوها لعبد الله بن المبارك وحمل إليه جهازا كثيرا ومالا كبيرا، وأنفذوا إليه عشرة أفراس ليجاهد عليها في سبيل الله

فرأى عبد الله بن المبارك في منامه قائلا يقول: إن كنت طلقت من أجلنا عجوزا فقد أعطيناك صبية بكرا، وإن كنت ذبحت فرسا واحدا فقد أعطيناك عشرة أفراس عوضها، لتعلم أن الحسنة بعشر أمثالها عندنا، ولا يضيع أجر المحسنين، وما عاملنا أحد فخسر ولا يخسر

وما تورد هذه الأخبار إلا ليعلم قدر الزوجة الصالحة وما فيها من النعمة من الله تعالى

فاضلات طيبات دينات

جلالة الملك المعظم

اعلم أن ديانة المرأة وسترها نعمة من نعم الله على عبده، وهيهات أن يقدر على المرأة العفيفة طامع

يقال إنه أراد رجل فاسق أن يكابر عفيفة بالحرام فقال لها: امضي وغلقي أبواب الدار جميعها وأحكمي إغلاقها! فمضت المرأة ثم عادت فقالت له: قد أغلقت سائر الأبواب وأوثقت إغلاقها سوى باب واحد، قال: أي الأبواب ذلك؟ قالت: كل الأبواب التي بيننا وبين الخلق أغلقتها، وقد بقي الباب الذي بيني وبين الخالق جلت عظمته ما قدرت عليه ولا استطعت أن أغلقه وهو بحاله مفتوح. فوقع في نفس الرجل من هذا الكلام الهيبة فأخلص لله التوبة وأقلع عن ذنبه وعاد إلى طاعة ربه الأعلى

ينبغي أن يكون الرجل صاحب حمية وغيرة على حرمه وناسه، فإن الحمية من الدين إلى حد أنه لا يجوز للرجل الأجنبي أن يسمع دق المرأة الأجنبية بالهاون (مهراس المطبخ)، وإذا دق رجل أجنبي باب الدار فلا يحل للمرأة أن تجيبه بلين وسهولة، لأز قلوب الرجل تتعلق بأقل الأشياء وأكثرها، وإن كان لابد للمرأة أن تجيبه فلتضع أصبعها في فمها ولتجبه ليصير صوتها شبيها بصوت العجائز

ولا يجوز لنساء أن ينظرن إلى الرجال الأجانب ولو كان المنظور أعمى، جاء في الخبر عن النبي المصطفي أنه دخل إلى بيت عائشة رضي الله عنها فرأى عبد الله ابن أم مكتوم قاعدا النساء (بين النساء) فقال: < يا عائشة لا يحل للمرأة أن تقعد عند غير ذي محرم >، فقالت: يا رسول الله إنه أعمى، فقال: < إن كان لا يراك فإنك ترينه >

يقال إن الحسن البصري رحمه الله عليه قصد زيارة رابعة العدوية رضي الله عنها في جماعة من أصحابه، فلما وصلوا الباب قالوا: أتأذنين لنا في الدخول؟ فقالت: تمهلوا ساعة! وجعلت الكساء بينها وبينهم سترا وأذنت لهم، فدخلوا وسلموا عليها، فأجابتهم من وراء الستر فقالوا: لم علقت بيننا وبينك سترا؟ قالت: أمرت بذلك في قوله تعالى: (فاسألوهن من وراء حجاب)

واجب على الرجل أن لا ينظر إلى امرأة أجنبية بأي حال من الأحوال، فإنه قبل أن يجازى به في الآخرة فإنه يجازى به في الدنيا

كان في بخاري سقاء من عادته حمل الماء لديار الناس، ومن بين تلك الديار كانت دار صائغ تردد عليها لثلاثين سنة، ولصائغ امرأة في نهاية الحسن والجمال والظرف والكمال، معروفة بالديانة وموصوفة بالستر الصيانة

جاء السقاء على عادته ودخل الدار والمرأة قائلة (نومة الظهر) في وسط الدار، فدنا منها وأخذ بيدها ولواها وعصرها ثم مضى وتركها

رجع زوجها من السوق، فقالت له: أريد أن أعرف ماذا صنعت اليوم بالسوق لم يكن لله تعالى فيه رضا؟ قال: ما صنعت شيئا، قالت: إن لم تصدقني فلا أقعد في بيتك ولا تعود تراني وأراك، فأقر بالقول: اعلمي أن في هذا اليوم أتت امرأة إلى دكاني فصنعت لها سوارا من ذهب، فأخرجت المرأة يدها ووضعت السوار في ساعدها، فحرت من بياض يدها وحسن زندها فتذكرت هذا المثنوي:

في ساعدها سوار تبر واري (متقد) ... كنار يلوح فوق ماء جاري
هل يخـــطر في هـــواجس الأفكار ... مـــاء وله منطقة من نــــار

ثم أخذت يدها فعصرتها ولويتها، فقالت زوجته: الله أكبر لم فعلت مثل هذا الحال؟ لا جرم أن ذلك الرجل كان يدخل البيت منذ ثلاثين سنة ولم نر منه خيانة

وحدثته بما فعل، واعتذر الزوج من زوجته، واعتذر السقاء من الحرة فغفرت له، قائلة بأن الخطأ ليس خطأه وإنما الله اقتص من بعلها في الدنيا

وكذلك ينبغي أن تكون المرأة مع زوجها، ظاهرها وباطنها واحد، وتقنع معه بالقليل إن لم يقدر على الكثير، وتقتدي بسيدات العالمين الكاملات من النساء أم المؤمنين عائشة وفاطمة رضي الله عنهما، لتكون من أهل الجنة إن شاء الله

جاءت فاطمة الزهراء إلى والدها تشكوا حالها وقلت ذات اليد، فقال رسول الله: < إذا أردت النوم فقولي قبل منامك ثلاث مرات سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر >

والمرأة تعز عند زوجها وتنمو محبتها في قلبه بإكرامها له، وطاعتها لأمره وقت خلوته، ومجامعتها له، وبحفظها منافعه، واجتنابها مضارة، وتربيتها ولده، واكتنانها في بيته، وقلة خروجها من خدرها، وأن تكون عنده عفيفة، كاتمة لسره، محتملة للأمر، وأن تحفظ وقت طعامه، ومهما علمت أن يشتهيه اصطنعته بطلاقة وجه وبشر، وألا تكلف حاجة ثقيلة، وألا تكون لجوجة، وأن تستر نفسها عند منامها، وأن تحفظ سر زوجها في غيبته وحضوره

قال صاحب الكتاب: وواجب على الرجال أن يؤدوا حق النساء العورات، وأن يتحفظوا بهن من وجه الرحم والإحسان والمداراة

ومن أحب أن يكون مشفقا على زوجته رحيما لها فليذكر عشرة أشياء من أحوالها لينصفها بها:

- أن المرأة لا تقدر أن تطلقه بغير إذن وهو قادر على ذلك متى شاء
- وأنها لا تقدر أن تأخذا شيئا بغير إذنه وهو قادر على ذلك
- وأنها ما دامت في حباله لا تقدر على الزواج من سواه وهو يجوز له ذلك
- وأنها لا يمكنها أن تعزي وهو يمكنه ذلك
- وأنها تخاف منه وهو لا يخافها
- وأنها تقنع منه بطلاقة وجهه في وجهها وبالكلام اللين وهو لا يرضى بجميع أحوالها
- وأنها تفارق أمها وأباها وجميع أقاربها
- وأنها تخدمه دائما ولا يخدمها دائما
- وأنها تتلف نفسها إذا كان مريضا وهولا يغتم لو ماتت!

فلهذه الوجوه التي ذكرناها يجب على العقلاء أن يكونوا رحماء على النساء ولا يظلمونهن ولا يجوروا عليهن، فإن المرأة أسير الرجل

ويجب على الرجال مداراة النساء لنقص عقولهن، وبسبب نقص عقولهن لا يجوز لأحد أن يتدبر برأيهن ولا يلتفت إلى أقوالهن

وقصة خسرو بن أبرويز الذي كان جالسا وزوجته شيرين معه معلومة مشهورة، ومختصرها أنه أهديا له سمكة فأهدي الصياد أربعة آلاف درهم، ثم نازر الصياد بتدبير شيرين حول جنس السمكة ذكر أم أنثي، فأنتهي بأن أمر له بأربعة آلاف درهم أخرى، وعندما هم بالخروج سقط له درهم فوضع كل ماله وهم برفع درهمه، فعجبت شيرين من سفاهته وطالبت الملك بتأنيبه وتوبيخه على وقاحته، ففعل ذلك خسرو ودافع الصياد عن نفسه معللا بأن وجه الملك واسمه منقوشان على الدرهم فخاف أن يدوس أحد الناس صورة الملك بجهالة ويكون هو الملام على ذلك

أعجب خسرو من كلامه فأمر له بأربعة آلاف درهم أخرى، فعاد صياد السمك ومعه اثنا عشر ألف درهم

وأمر خسرو مناديا ينادي: لا يتدبر أحد برأي النساء، فإن من تدبر بآرائهن أو انتمر بمشورتهن خسر درهمه درهمين

قال صاحب الكتاب رضي الله عنه وطيب ثراه وأحيا ذكره: عمارة الدنيا وتناسل بني آدم بالنساء والعمارة لا تصح بغير رأي ولا تدبير، وقيل شاورهن وخالفوهن

ويجب على الرجل الفاضل المتيقظ أن يحتاط في خطبة النساء وطلبهن، وليتزوج البنت لا سيما إذا بلغت لئلا يقع في الغدر والعيب ومرض الروح وتعب القلب. وعلى الحقيقة كل ما ينال الرجل من البلاء والهلاك والمحن فبسبب النساء كما قال الشاعر:

من فتنة النساء قد يعصى الفتى الر ... حمن أو يخشى من السلطان
اللـــص لولاهن لم يــك بائعا ... للـــروح منه بـــأرخص الأثـــمان
منهـــن قـــرع آدم مع يـــوسف ... فـــي محكم التـــنزيل بالعصـــيان
وكـــذاك هـــاروت بابـــل منـــكس ... ومعلق بالشـــعر في جذعان
مجنـــون عامـر هام من أجل النسا ... في السند باد عجائب النسوان
كـــل الـــبلا منهن يأتـــي والـــوفا ... منهن لا يـــأتي مـــدى الأزمان

تم الكتاب بحمد الملك الوهاب

والصلاة والسلام على خير البريات سيدنا ومولانا محمد سيد السادات

وعلى آله وأصحابه عدد الأوقات والساعات